الإسلام دين الفطرة والحرية

تأليف

الشيخ عبد العزيز جاويش

الكتاب: الإسلام دين الفطرة والحرية

الكاتب: الشيخ عبد العزيز جاويش

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميـع الحقـوق محفوظـة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

جاويش ، الشيخ عبد العزيز

الإسلام دين الفطرة والحرية/ الشيخ عبد العزيز جاويش

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٩٦٢ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٩٣٣ / ٢٠١٩

الإسلام دين الفطرة والحرية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الإهداء

إلى الجيل الذي عاصر أبي، والبقية الصالحة التي نستمد منها العون والهدى في طريق الحياة.

إلى الجيل الذي نشأ بعد أبي، ولم يتح له أن يعرف شيئًا، أو عرف القليل عن جهاده في سبيل الوطن والعروبة.

أقدم بعض آثار والدي في ميدان الإصلاح الديني والعلمي الذي حمل لواءه، في عهد كان عبء الدعوة فيه إلى الإصلاح فادحًا لا ينهض به إلا المجاهدون، من أولي العزم والقوة، الذين يستسهلون كل صعب في سبيل أداء رسالتهم، لا يثنيهم كل صعب في سبيل أداء رسالتهم، لا يثنيهم عنها ما يعترض طريقهم من أهوال، وبخاصة في تلك الحقبة التي قام فيها بالدعوة إلى الإصلاح.

وهي رسائل تحمل أسماء مختلفة ولكنها تهدف جميعا إلى غرض واحد، هو الكشف عما في الإسلام من سمو ورفعة، وما في أحكامه من علم وحكمة، وما في روحه من بر بالإنسانية وهداية لأبنائها.

ولعل من توفيق الله، أن تتهيأ الفرصة لنشر هذه الرسائل في الفترة التي تطورت فيها الروح المصرية، واتجه فيها تفكير المثقفين إلى المباحث

الدينية على أسلوب علمي، كان يلتزمه – رحمه الله – في كل مباحثه ودراساته.

وليس من حقي في هذا المقام أن أطري هذه الآثار العلمية، لأنها آثار أبي، وها أنذا أقدمها للقراء أثرًا عليه طابع منشئه حسب، وفيه قوة روحه وإيمانه وكفى.

نجل المؤلف

المرحوم ناصر جاويش

المؤلف في سطور

- ولد المؤلف في ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦ من أسرة مغربية بمدينة الإسكندرية.

- بدأ حياته التعليمية بالأزهر سنة ١٨٩٢ ثم تخرج في مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٧.

- عين مدرسًا في مدرسة الزراعة ثم أرسلته وزارة المعارف في بعثة إلى جامعة (برورود) بإنجلترا.

- عاد من البعثة سنة ١٩٠١ وعين مفتشًا بوزارة المعارف.

- عين أستاذًا للغة العربية بجامعة أكسفورد وأثناء وجوده بإنجلترا دعيت الحكومة المصرية لحضور مؤتمر اللغة العربية في بلاد المغرب فمثلها في هذا المؤتمر.

- عاد عام ١٩٠٦ وعين مفتشًا أول بوزارة المعارف واستمر إلى أن استقال في أبريل سنة ١٩٠٨ خلفا للزعيم الوطني مصطفى كامل.

- قدم للمحاكمة أمام محكمة عابدين سنة ١٩٠٨ في قضية (الكاملين) لنشره مقالا تحت عنوان (دنشواي أخرى في

السودان) وقد حكم عليه ابتدائيًا بتغريمه عشرين جنيهًا نظير إهانة نظارة الحربية المصرية وبُرئ استئنافيًا.

- قدم للمحاكمة في سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالا في اللواء تحت عنوان (ذكرى دنشواي) اعتبرته النيابة إهانة في حق بطرس غالي وفتحي زغلول، وصدر الحكم استئنافيًا بحبسه حبسًا بسيطا ثلاثة أشهر.

- في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدم له الشعب وسامًا في حفل خاص أقيم في فندق شبرد تقديرًا لوطنيته.

- في فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة الهداية لإفهام المسلمين أسرار القرآن وأنشأ المدارس الإعدادية الثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية وآدابها للأزهريين.

- في سنة ١٩١٠ قدم للمحاكمة بسبب وضعه مقدمة لكتاب (وطنيتي) تأليف الشيخ علي الغاياتي وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر حبسا بسيطا مع التنفيذ.

- وفي سنة ١٩١٢ أبعد الشيخ جاويش إلى تركيا حيث أعاد إصدار الحزب الوطني جمع التبرعات وإرسال الذخائر وتهريب القواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة الغزو الإيطالي.

- وفي سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة إرسال منشورات ضبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا وتم تسليمه فعلا للحكومة المصرية وأودع سجن الحدرة ثم أفرج عنه.

- وفي سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وضع أساسها وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد إليها بإدارتها.

- وفي سنة ١٩١٤ سافر الشيخ جاويش إلى إنجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامي وأثناء ذلك حصل اعتداء على الخديوي عباس حلمي فشعر بأن السلطات البريطانية تنوي القبض عليه لاتهامه فيه فاختفى وتمكن من الهرب إلى باريس.

- وفي سنة ١٩١٥ أعدت حملة من الجيش التركي لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزي واشترك فيها الشيخ جاويش وبعض رجال الحزب الوطني الذين تمكنوا من السفر خلسة بعد إعلان الحرب.

- وفيما بين سنتي ١٩١٥ و١٩١٨ كان يتنقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام وقد أنشأ مجلات إحداها تصدر باللغة الألمانية باسم Die Islamiche Welt وثانية في إسطنبول باللغة

العربية باسم (العالم الإسلامي) وفي سويسرا مجلة باسم L'Egypt بالاشتراك مع رجال الحزب الوطني للدفاع عن استقلال مصر، وكذلك استخلص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالأستانة والريخستان بألمانيا في عام ١٩١٧، كما اشترك في مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق في استكهولم.

- وفي سنة **١٩١٨** غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطني تركيا خفية بعد انتهاء الحرب إلى ألمانيا عن طريق روسيا ثم إلى سويسرا حيث قاموا بالاتصال بالوفد المصري بباريس وقدموا له مذكرة بما قاموا به في أوروبا.

- وفي سنة **١٩١٨** غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطني تركيا خفية بعد انتهاء الحرب إلى ألمانيا عن طريق روسيا ثم إلى سويسرا حيث قاموا بالاتصال بالوفد المصري بباريس وقدموا له مذكرة بما قاموا به في أوروبا.

- وفي سنة **١٩٢٢** استدعاه الغازي مصطفى كمال باشا وعينه رئيسا للجنة الشئون التأليفية الإسلامية بأنقرة.

- وفي سنة **١٩٢٣** حصل خلاف بينه وبين الغازي مصطفى كمال في شأن إلغاء الخلافة، وكان الدستور قد أعلن بمصر فحاول العودة للوطن وتمكن من العودة إلى مصر خفية في ١٣

ديسمبر سنة ١٩٢٣. ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش وبعد عشرة أيام صرحت الحكومة للشيخ جاويش بالإقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحيى إبراهيم.

- وفي سنة ١٩٢٥ عين مراقبا عاما للتعليم الأولى بوزارة المعارف العمومية وقام بإصلاحاته المعروفة.

- وفي ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفي رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية وسنه لا تتجاوز الثالثة والخمسين.

دين الفطرة

تمهيد

زارني ذات يوم، وأنا في أكسفورد من بلاد الإنكليز، لفيف من نجباء العلم في كليتها الجامعة، فما كاد يستوي بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث في أمر الشرق والشرقيين، وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال، التي تباين في كثير من الوجوه، ما عليه أهل أوروبا، حتى أفضى بنا المقام إلى الكلام في الإسلام، فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى، سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات، وأن المسلمين يعبدون محمدًا كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم، وما زادوني فيهم بصيرة، فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفني على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف.

فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل، أصول الدين الإسلامي وقواعده وحكم بعض تكاليفه، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم، من غير أن يستهوي نفوسهم تعصب، ولا يعمي قلوبهم عناد أو جحود، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائض، التي مثلت لهم الإسلام في أبشع صورة وأقبحها، ولم يكد ينتهي بنا الحديث، حتى انطلق أحدهم قائلا: «يخيل إلي أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافي الفطرة في شيء». فأجبته إذ ذاك بما تذكرونه من قوله عليه السلام «كل

مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة وهل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها». وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف.

والذي يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الإنسان يكسب أبويه كالجدع الذي يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها، ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الإسلامي من عدم تكليف القاصرين وألا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير، حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذوا إذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم، فترى الإسلام قد اعتبر القاصرين، حتى أبناء النصارى أو اليهود أو المجوس، مسلمين ناجين حتى يكلفوا؛ فالدين الفطري لكل مولود هو الإسلام إلا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالإرث ونحوه، فإن الأطفال في ذلك تابعون لآبائهم.

(وبعد) فإنا نريد أن نذكر لك وجه كون الإسلام دين الفطرة، وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود لا منصر لما اختار بفطرته إلا الإسلام، ولا يمكن توضيح ذلك إلا بالبحث في بعض أصول الإسلام قواعده والأغراض التي يرمي إليها الشارع في تكاليفه، فنقول:

الفطرة والتوحيد

كل إنسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدا قد نظم هذا العالم ودبره، لا يمكن أن يشابه الممكنات في شيء في صفاتها، فليس بجسم ولا عرض ولا

محدود، ولا متحيز، ولا يستطاع إدراكه إلا بآثاره الشاخصة، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول.

إلى ذلك اهتدى الأعرابي بفطرته فقال: «البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير. فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير». فجاء الإسلام مصدقًا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد في الاستدلال شيئًا سوى أن أيقظ العقول ونبهها إلى النظر في آثار الله تعالى، فما عليك ألا تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك في أكثر من آية من آياته.

نعم ربنا قال إنسان أنه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس في عقائدهم وتباينوا في تصوير آلهتهم، فذهبوا كما تعلم مذاهب شتى حتى لا تكاد تجد تشابها بين آلهتهم. وسنحقق لك بعد أن هذا مباين لمقتضى الفطرة، إذ منشأ ذلك أن الإنسان ميال إلى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات وإلى إنكار ما ليس له في ذهنه صورة ولا حدود محصورة.

فمن ذلك ما قصه الله في شأن معاندي أهل الكتاب حيث قال: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [النساء:١٥٣].

ومن البديهي أن الشيء لا يصح إنكاره إلا إذا ثبت بالبرهان القطعي عدم وجوده، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والإحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهانا ينفي به وجود الشيء، وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحكمين بأهل العلم في هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذي هو آية الجهل ونهاية الحمق.

جاء الإسلام في وصف الحق وإثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة، أفلا تدبرت قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة:٢٥٥].

لقد جمعتني المصادفة برجل مسلم من الإنجليز، لم يرج من إسلامه شيئًا من حطام الدنيا، ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شيء من الرغائب السياسية، فقال لي: «إن في القرآن الكريم آية لا أمل في تكرارها ولا من ترديد النظر فيها، جاءت في وصف الله تعالى بما ليس في استطاعة أحد من أئمة الأديان الأخرى، على ذكائهم وسعة اطلاعهم، أن يأتوا به»، ثم تلا بالإنجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسي.

فبأبيك أيها العربي هل مرت تلك الآية مرة على سمعك إلا وأنت لاه عنها تلعب، أو حركت بها لسانك إلا وأنت بها تعجل. هذا وتتميما

لموضوع التوحيد أريد أن آتيك هنا بكليمات عثرت [*] للورد ماكولي الكاتب الإنكليزي الشهير، إذا قال ما ترجمته:

«إن علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلي، فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الأشياء ما لا يمكن للعقل أن يحيط به، بخلاف السواد الأعظم من العامة فإن معظم أفكارهم وقضاياهم إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئًا من مذاهبهم، ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم، ومن هنا نشأت كما تظهر الأديان الوثنية في كل أمة وفي كل جيل في زمن، فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها.

ولطالما إذن بينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديما في دينهم من البدع، مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال. ويمكن القول بأن معظم الأسباب التي ذكرها (جيبون) وجعلها أساس انتشار الدين النصراني لم تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين في أطراف الأرض إلا أنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التي كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة، فإن إلها لم يخلق وكائنًا لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به إلا الفلاسفة العالمون، أما الأخلاط ضعاف العقول من الناس فإنهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت إدراكاتهم عن أن تصل إلى

---

[*] See the essay on Milton.

القول بإله ليس له صورة محدودة في نفوسهم، فكانوا يتأففون ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة ويرمونهم بالبله أو قصور الذهن.

طاشت النفوس في الأزمنة القديمة، وضلت الصراط السوي، وقست القلوب، وانتهكت الحرمات، فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم إلى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر. ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم، فتمثل الإله لهم في صورة آدمي مشى بينهم وشاركهم في أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال، كما كان يبكي على القبور وينام في الحظائر، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب، فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد من الوثنية، ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان، فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان، وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا Cicilia وغيرهما آلهة للجمال وفنون الأدب، كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى (The muses) إلهات لدى اليونان، وهلم جرا. ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون لما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية، ولكنهم لم يفلحوا. تجد العامة في هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من الخزعبلات، ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم في سوق الفضائل والمكرمات، أكثر مما يميلون إلى تعرف وتفهم شيء من قواعد الدين الأساسية».

هذا ما قاله اللورد ماكولي في شأن الدين الذي يعتنقه ويذعن له، وفي الأمم التي شاركته في الأخذ به وبيان أحوالهم، وقد أذكرني هذا – والحديث ذو شجون – ما أصاب عقول المسلمين من المس الذي أصاب عامة غيرهم، أفرأيت الذين يذهبون إلى الأضرحة فيعفرون بترابها ويتضرعون إلى من فيها متوسلين بهم إلى من هو أقرب إليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على إصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم؟ «قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، أإله مع الله... أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون». والخلاصة أن السبيل التي جاء بها الشرع الإسلامي في الإيمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هي السبيل التي يصل إليها الإنسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع إلى غير تلك السبيل.

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)} [سورة الإخلاص: ١-٤].

النبوة والغرض الفطري منها

ظهر النبي ﷺ في أمة أمية، دينها الوثنية، ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد، ووسائل ارتزاقها السلب والنهب، فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من صد عنه.

كان معاند واليهود والمشركون يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة، فكان النبي ﷺ يرجع بهم إلى الجواب عما هو في حدود وظيفة الرسل، إذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الأرض ونحوه من المعجزات، ولقد نقل عن ابن رشد أن الآيات الاقتراحية الخاصة بطلب المعجزات لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة إذ جاءت منفردة لأنها ليست من أفعال الصفة التي سمي بها النبي نبيا أو الرسول رسولا، ولذا كان النبي عليه السلام يرجع بالقوم إلى ما هو من حدوده وإلى تدبر ما جاء به القرآن الكريم من الهداية، فإن دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الإبراء على الطب لمن يدعيه، قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)} [العنكبوت: ٤٩-٥١].

ولطالما تنصل النبي ﷺ من إجابة مطالب العرب، وأرشدهم إلى ما قصد من شريعته وهو إصلاح شأن العالم الإنساني والقضاء على ما كان سائدًا فيهم من الضلال المبين، قال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام: ٥٠]

وجاء في سورة الإسراء: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ

خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)} [الإسراء: ٩٠-٩٤].

كما قال {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء:٥٩]، وقال: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)} [الأنعام: ٥٧-٥٨].

لم يكن طلب المعجزات من النبي عليه السلام ناشئًا عن ترو من العرب وصدق رأي وسلامة فطرة وإصرار منهم على ألا يقبلوا شيئًا إلا ببرهان، ولكنهم كانوا يقترحونها إما عبثًا أو عنادًا أو عملاً بما تلقفوه عن الجاهلية الأولى وما أملت عليهم نفوسهم التي أخذ الضلال بتلابيبها، فكان النبي عليه السلام يدعوهم إلى العمل بمقتضيات الفطرة الإنسانية وبطلب ما لا يخالف سنة الله التي لن تجد لها تبديلا، قال تعالى:{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا

لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [سورة الأنعام: ١٠٩-١١٥].

أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التي يطلبونها لا تصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعة، إذ مثلها في ذلك مثل من ادعى أن ٢+٢= ٥ وبرهن على ذلك بإبرائه مريضًا من داء عضال، فإن المدعي بها أتى من الأمور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع ما لا يستطيع أن يحمل أحدا على اعتقاد صحة دعواه التي أتى بها، ومن هناك كان الأقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون ما يأتي به أنبياؤهم من المعجزات، فقائل أنها سحر وقائل أنها من أعمال الجن المسخرة لهم، حتى إذا ضاقت عليهم الأسباب لجئوا إلى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز أفهامهم عن إدراك معنى تلك الآيات مع إصرارهم علي الجحود والإنكار، كما قال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [البقرة:٨٨]، وقال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت:٥]، فكانوا يقفون بعد أن تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات.

طالما كذب المشركون النبي ﷺ، كما فعل أسلافهم، وناله من عنائهم ولجاجهم في طلب المعجزات ومغالاتهم في العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء، ولو كانت الخوارق في يد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت من البراهين التي تصح لإلزام الخصم وإفحامه، لما قعد

بالنبي عليه السلام أمر عن الإتيان بها، ولكنها كلمات الله التي لا مبدل لها وسننه التي لا تتغير وفطرته التي فطر الكون عليها {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام: ٣٥].

والخلاصة أننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وأن لا يشطوا في مطالبهم ولا يتعسفوا في اقتراحاتهم، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة إلى ما يريدون من الغايات، ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة التي جاء بها ذلك النبي الأمي عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونورا مبينا يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من ظلمات إلى النور بإذنه، ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم إلى نزول إحدى المعجزات أمرهم الله بتدبر القرآن الكريم.

القرآن والفطرة البشرية

نزل القرآن الكريم ليؤدي ما قصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الإلهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة، وما زال القرآن إماما يتبع وفيصلا يحكم في النوازل، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه، فاستمعوا آيات القرآن في غير ما وضعت له، فاتخذوها للتطيب والفتك بالأعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات

وتسخير الجن وتوسيع الرزق، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد، بل تراهم تطرفوا واجترءوا على القرآن ومنزله، فأولوا القرآن طبقا لأهوائهم وأخرجوا كثيرًا من آياته عن معانيها التي تفهم من لغته وأسلوبه وسياقه، أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق:٢٢] وقوله: {شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس:٥٧]، وقوله: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الزمر:٣٤]، وقوله: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا} [الكهف:٨٦]، وقوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت:١١]، {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)} [النبأ: ٦-٧]. إلى نحو ذلك من الآيات، وإن شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين في تفسير هذه الآيات وأمثالها من الإفك المبين والجهل الفاضح فارجع إلى ما كتبوا، ولنضرب لك مثلا شيئًا مما كتبوه فنقول:

(١) جاء في الجزء الثاني عشر من تفسير الطبري عند الكلام على قوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود:٤٤]، حديث موضوع في وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج أنه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفي أسفلها السباع وكان طولها في الجو ثلاثين ذراعًا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودي يوم عاشوراء ومرة

بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت.. أهـ.

(٢) وجاء في كثير من التفاسير في تأويل قوله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:١١]– في سورة الرعد– أن الضمير في «له» عائد إلى من ذكر اسم الله وأن المعقبات الملائكة تتعقب على العبد، وذلك أن ملائكة الليل إذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار، فإذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل، ورووا في ذلك حديثا عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان ﷺ، على رسول الله ﷺ، فقال: أخبرني عن العبد كم معه من ملك. قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذي على الشمال... وملكان من بين يديك ومن خلفك. يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل إليه، وملكان على يمينك، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي وإبليس بالنهار وولده بالليل.... أهـ.

ولا يخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبي (ص)، على أنه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها. وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به، مع أن سياق الآية لا يكاد يحتمله بوجه من الوجوه، فإن سياق الآية كان في التكلم على علم الله وإحاطته بجميع الكائنات، وعلى عظمته

وتعاليه المتناهي الذي يغلب معه كل مغالب ولا يقي الإنسان دونه أي حافظ، إذ قال: «عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهة به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من أمر النهار» فالمستخفي بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسا سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفي عن الله ولا الحرس يدفع عن الإنسان ما يقضي به الله على عباده، ثم بينت الآية أن سنة الله في خلقه ربط الأسباب بمسبباتها، فخفاء الأسباب أو كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها، فإن الله الذي جعل ذلك الرباط – رباط السببية – مطلع على خفايا الأمور محيط بما تخفيه الضمائر، فلا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فإذا تحققت أسباب أي قضاء وأراد الله تعالى لتحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال، فلا ينفع الإنسان إذ ذاك حرس كثيف يتعاقب عليه دائمًا بغية دفع شر الحوادث.

هذا ما يفهم من الآية وسياقها فعجبا لأولئك المفسرين أرادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ، فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا إن الضمير في قوله تعالى «له معقبات» يعود على ذكر اسم الله تعالى، وهذا لا أثر له أصلا في الآية.

(٣) ومن ذلك ما قاله بعضهم في تأويل قوله تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا} [القدر: ٤]– حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والأرضين السبع كانت له لقمة واحدة، أو هو ملك رأسه تحت

العرش ورجلاه في آخر الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفي كل وجه ألف فم... إلى آخر السلسلة المعروفة، فانظروا إلى هذه الخزعبلات التي يحملونها عليها كتاب الله تعالى.

(٤) ومن ذلك أيضًا ما أتى به كثير من المفسرين في تأويل قوله تعالى: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [سورة الرعد: ٣٩] اختلف أهل التأويل في ذلك. فقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران، وزاد بعضهم الحياة والموت، ثم انقسموا، فقال بعضهم أن ذلك في ليالي القدر، وقال بعضهم أنه في ليلة النصف من شعبان. وقال آخرون أن ذلك في كل ليلة. ففي تفسير ابن جرير عن أبي الدرداء قال: (قال رسول الله ﷺ: أن الله ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، يفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره أحد غيره يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، وقال أيضًا: أن الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل في الساعة الأولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء) وإذا شئت أن تستقصي ما قالوه في أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم.

دعاء نصف شعبان

ولعلك تتطلع نفسك إلى تفهم معنى المحو والإثبات هناك، فنقول: قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها.

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)} [الرعد: ٣٨-٣٩]. انقسم أهل الكتاب على النبي عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الأحكام، كما كان من الأحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى ﷺ من التزوج والأكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)} [الفرقان: ٧]، وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى ﷺ شيئًا من الآيات الخارقة للعادة كإغاضة المياه ونقل الجبال إحياء الموتى لا يجيبهم إلى شيء من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا، فكانوا يستضعفونه وينزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزًا لا ينبغي له أن يدعي النبوة، فرد الله على أولئك القوم، وبين لهم أن تلك الأشياء لا تنافي الرسالة في شيء فقال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد:٣٨]

كما بين أن التصرف في الكون والإتيان بخوارق العادات ليس إلا لله تعالى فقال {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [غافر:٧٨]، فهو الذي يمحو ما يشاء محوه، ويثبت ما يشاء إثباته، طبقا لما سبق في علمه القديم، كما يدل عليه قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد:٣٩]، إذ معنى أم الكتاب أصله، وأصله هو العلم القديم الذي لا تتعلق قدرة ولا إرادة بشيء إلا طبقا له. وبالجملة أنه لم يقصد من قوله تعالى {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} إلا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل

ذلك: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}. هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال، ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من أن الله تعالى قد يغير ما سبق في علمه إلا الشقاء والسعادة، فإن هذا يفضي إلى القول بأن علم الله القديم جهلا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته في ليلة النصف من شهر شعبان إذ ورد فيه: «اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًا أو محرومًا أو مطرودًا أو مقترا علي الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني إلخ» فإن معنى ذلك أن الداعي يسأل الله أن يغير ما سبق علمه أزلا إلى ما هو من مشتهيات نفس الداعي وإن انقلب علم الله بذلك جهلا.

أعداء القرآن

عاش النبي ﷺ ما عاش، ثم مضى السلف الصالح من بعده، فما سمع أن أحدًا منهم فهم من القرآن ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربي مبين، ثم خلف من بعدهم خلف افتئتوا على النبي وصالح أتباعه، وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما في غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب، فتجلوا للقرآن أعداء الله في ثياب أصدقاء، يلزمونه بما ينكره، ويحملونه ما لا يحتمله، ويفسرونه طبقا لأهوائهم، ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجه من الغرض الذي أنزل لأجله، والله يقول: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [فصلت: ٣-٤]، ويقول: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء:١٠٥]، ويقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)} [الكهف: ١-٣]، وكذلك يقول: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ} [سورة المائدة: ١٥-١٧]، ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عن استقصائه من أمثال تلك الآيات التي تنطبق ببيان الغرض الذي جاء له القرآن الكريم.

غفل أكثر المفسرين، أو جهلوا الغرض الذي أنزل له هذا الكتاب الكريم، كما كلت أفهامهم عن إدراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمي إليه، فقالوا أن القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية إليه، فقالوا أن القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية إلا أتى بشيء من مسائله، فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا، وادعوا أنه أتى من كل فن بطرف، فحملوه من التأويل ما ينبو عنه، ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم، ووسوست لهم بها شياطينهم، فشوهوه وألبسوه غير لباسه، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين.

لنرجع إلى ما ذكره أولئك المفسرون في شرح إرم ذات العماد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، وإلى ما قالوه في أمر

الزلازل والثور الحامل للأرض، ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دمًا، إلى آخر ما قالوا، كما الفتك إلى ما قالوه في تعليل ما يشعر به الإنسان من سخونة مياه الآبار في الشتاء، وبرودتها في الصيف، إذ عللوا ذلك بأن ليالي الشتاء طويلة، ولما كانت الشمس تغرب فتدخل في جوف الأرض كان تأثيرها في المياه التي في جوف الأرض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها في أثناء الصيف.

هذا بعض ما أتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى، فأضحكوا منهم الصبية والبله، فضلا عن العقلاء من الناس، كما أنهم حملوا غير المسلمين، على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم، فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالإنكليزية يأتي واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون، ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك الكتاب، وأولئك أئمته، فيا لله من الصديق الجاهل.

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه، فجعلوا يحومون حول المعاني البعيدة ليحموا عليها آيات القرآن. ألم تر إلى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين: أحدهما باطني، والآخر ظاهري، وادعوا أن الرسول الذي أتى به لم يصل إلى إدراك ما فيه من المعاني الباطنية، مع أنه يقول ما معناه: أنا أعلم بكتاب الله تعالى، ولو علمت بأعلم مني لرحلت إليه، أو كما قال:

أرغني سمعك أقص عليك أن المتدبر للقرآن يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم ما سئل في شيء مما لم يبعث لأجله إلا صرف السائل عن قصده، وتلقاه بغير ما يترقب تنبيها إلى أنه الأولى بالقصد والأليق بما هو من حدود الرسل، ووظائفهم من الهداية والإرشاد وتبليغ الشرائع. ينوه إلى ذلك قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء:٨٥]، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة:١٨٩]، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥)} [النازعات: ٤٢-٤٥]، فبين الله في هذه الآيات أن وظيفة الرسل الإنذار وتحذير العالم من تلك الساعة التي هي آتية لا ريب فيها، وليس وظيفتهم تعيين وقتها، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: {إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ

آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي
صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا
قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ
أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ
كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى
(٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى
(٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ
تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ
فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي
(٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ
إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا
إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا
أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا
قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا
مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ
فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي
وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا

وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ
وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧)
فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ
مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)
فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ
يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا
أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً
مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩)
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ
قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا
فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ
مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ

مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وَلَقَدْ
أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا
تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا
غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ
أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ
وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ
غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣)
قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ
فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ
غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ
أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا
أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ
أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢)
أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي
إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ

فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)} [طه: ١٠-١٠٧]، تدل هذه الآية وما سبق على ما قلناه لك آنفا من أن النبي ﷺ في إجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لا يسألوا إلا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها، رجوعا بهم إلى السنة الفطرية.

هل أسس الإسلام على السيف؟

لهج معظم الأوربيين، وضعاف العقول من المسلمين، بأن الإسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه في عالم الوجود إلا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل، وتذلل بين يديه العظماء، وتلجئ المستضعفين إلى اعتناقه حقنا لدمائهم، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم، وقد ضربوا الأمثال بما قام به النبي

ﷺ من سراياه ومغازيه، ثم بما عمل خلفاؤه من بعده، على أنهم من قرءوا القرآن، وشيئا من التاريخ، وسيرة النبي ﷺ، وعرفوا شيئًا من أخلاق العرب وعاداتهم في ذلك الوقت، لما تطرق ذلك الخطأ إلى عقولهم، ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم، حتى رموا النبي ﷺ وصالح سلفه بما هم براء منه، نعم إنه لا يسعني أن أنكر أنه قد وجد من أمراء المسلمين من شوهوا وجه الإسلام، ودنسوه بما جنت أيديهم عليه، ولكنني أريد أن أتكلم هنا في الإسلام من حيث هو، كما أريد أن آتي على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبي ﷺ وحروبه، لترى أنه ﷺ ما بدأ أحدًا بعدوان في جميع ما أقامه من الحروب، وما يتذكر إلا أولو الألباب.

لا حاجة إلى أن أذكر هنا ما كان عليه في بدء الدعوة من الانفراد والضعف، وما أصابه من أهله من الأذى فإن هذا ما لا يرتاب فيه أحد.

أرسل الله رسوله بالهدف ودين الحق، فجعل النبي يسر بدعوته إلى من يثق بتوقد فكره، وتمكن الإنصاف من قلبه، فلم يسل لتأييد رسالته إلا سيف الهدى والحجة الدامغة، فممن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وأبو ذر الغفاري، ومن السابقين إلى الإسلام خالد بن العاص جاء النبي فقال له: «إلام تدعو يا مُحَمَّد؟» فقال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، والإحسان إلى والديك، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وأن لا تقتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق، وأن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى

يبلغ أشده، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل في قولك ولو كان على ذوي قرباك، وأن توفي لمن عاهدت»، فأسلم..

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في الإسلام غير مهددين ولا ملجئين، ولكن طائعين منصفين مدركين الفرق بين ما كانوا عليه من الضلال، وما أتاهم به هذا الدين الحنيف، ولم يدفعهم إلى الدخول في الإسلام إذ ذاك رغبة في جاه، ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع، فإن أكثرهم كانوا أوسع ثروة، وأعظم جاها، وأقوى عصبية، وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذي أطاعوه، وتبعوا شرعه، واحتملوا الأذى في تأييده {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: ٢١].

ثم جهر النبي ﷺ بالدعوة، فسخرت منه قريش، وكانوا يضحكون منه في مجالسهم، وهو مع ذلك لا يثني عزمه، ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم، وتقبيح آلهتهم، فأضمروا له العداء ثم جاءوا إلى أبي طالب عمه وقالوا له: إن لك شأنا وشرفا ومنزلة منا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا، فأما أن تكفه أو ننازله وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا، فعظم علي بن أبي طالب فراق قومه، ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه. فقال له: يا ابن أخي، أبق على نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيقه، فظن الرسول أن عمه خاذله، فقال: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ثم بكى وولى. وقد صادف النبي على أثر ذلك من أذى قريش ومناوئتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ما

خلد في التاريخ، ومن ذلك ما رواه البخاري قال: «بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله ﷺ فخنقه خنقا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

ولقد عم الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد إلا أصابه منه حظ كبير، ذلك أبو بكر الذي كان في الجاهلية سيدًا شريفًا اشتد عليه أذى قريش، حتى أجمع رأيه على الهجرة إلى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله في داره فيصلي فيها ما شاء، ويقرأ ما شاء ولا يؤذي قريشًا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم، فلما ابتنى أبو بكر مسجدًا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت الله عليه، فأما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلى ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فأنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما في البخاري بتصرف).

تفاقم الخطب، وأحدقت الفتن بالمسلمين، حتى عجزوا عن احتمالها، فأشار النبي ﷺ عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة، فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة، فلما أعيت قريشًا الحيل، عزموا على منابذة بني هاشم وبني المطلب وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمدًا صلى الله

عليه وسلم للقتل. وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فأمر النبي ﷺ جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة، فهاجر معظمهم.

ولما رأى النبي ﷺ من قريش ما رأى جعل يخرج في الأسواق العربية، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه، فكان منهم من يرده ردًا جميلا، ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا، حتى إذا جاء رؤساء الأوس إلى مكة ليحالفوا قريشًا على الخزرج جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له، أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئًا» ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض إلا قليل حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به، ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلا قليلا، فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون في إيذائهم للنبي على ما هو في كتب السنة الصحيحة.

فلما علموا بما حالف الأنصار عليه النبي ﷺ أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابًا جلدا ويجتمعوا أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم، فألهم الله النبي ﷺ جميع ما دبر له أعداؤه، فخرج هو وصاحبه أبو بكر إلى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.

أسباب الغزوات

هكذا كان مجمل بدء الدعوة الإسلامية، وإنني هنا لواثق أنه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئًا من ذلك، أو يدعي أن سيفًا أعمل في خلال تلك السنين. فما على إلا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختارًا أشدها وأهمها في إظهار الدين، فأقول: أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج: ٣٩-٤٠]، وقال: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٩٠-١٩٥].

فلم يبح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم، فلما تمالا على المسلمين غيرهم من قبائل العرب، أباح الله للنبي أن يقاتل كل معتد عليه فقال: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة: ٣٦]، وقال: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» فانظر إلى ما شرعه الله للمسلمين من القتال، أتجده يخالف في شيء ما يسمى في هذا

الزمن بقتال المدافعة عن النفس؟ كلا، فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء، ولم يبح لهم إلا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلهم.

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبي ﷺ وهموا بقتله وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لأجل أضعاف شوكتهم وفل غرورهم، حتى لا يتمكنوا من العودة إلى محاولة قضاء ما ربهم من النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد، فكانوا يتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء على دينه وشيعته، فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم، ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم، فكان من الحزم وسداد الرأي أن يقعد النبي ﷺ لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل، فكان يرسل السرايا، ويخرج بنفسه في المغازي، حتى لا تمر عير لقريش إلا صادرها، وحرم المشركين مما فيها من الأمتعة، فكان مرة يصيب منهم، وتارة يخطئهم. فمن أكبر الغزوات التي انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى، خرج النبي ﷺ مترصدا أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية لهما مثقال فصاعدا إلا بعثا به في تلك العير.

فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول في رجاله أرسل إلى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا، فالتقى الجمعان، وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة».

وكان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوقون أن يصيبهم من أهل مكة ما لا قبل لهم به، فلما كانت وقعة بدر الكبرى التي أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول، فبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، فلقد قال رؤساؤهم للنبي ﷺ، وقد حذرهم عاقبة البغي: «لا يغرنك يا مُحَمَّد ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقي» فبنقضهم ميثاقهم، وبدئهم بالعداء سار إليهم النبي ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فلما آنسوا من أنفسهم الضعف، واستولى على أفئدتهم الرعب، سألوا الرسول أن يخلي سبيلهم فيخرجوا من الأموال، فقبل منهم ذلك.

وقد عزم النبي ﷺ على الذهاب إلى مكة لتأدية نسك العمرة، فيخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدي إيذانا بأنه لم يذهب إلى مكة محاربا فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية، ثم إن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا إلى قريش ليعلمهم مقصده، فذهب عثمان وبلغ ما حمل، فقالت قريش: إن مُحَمَّدًا لا يدخلها عنوة أبدًا، ثم إنهم حبسوه، فشاع أن عثمان قتل فقال عليه الصلاة والسلام حينما بلغه ذلك الخبر: «لا نبرح حتى نناجزهم الحرب». وبايع أصحابه على القتال، فخافت لذلك قريش، فأرسلت سهيل بن عمرو في طلب الصلح، فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التي منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين.

ثم انصرف النبي والمسلمين قافلين إلى المدينة في تلك السنة، وعادوا لقضاء عمرتهم في العام التالي، ثم عمل النبي ﷺ بمقتضى شروط الصلح، فلم يخفر دمه، ولم ينقض عهدًا، حتى بدأت قريش بالعدوان.

ذلك أنه قد دخل في عهد النبي ﷺ عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة، كما دخل في عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر، وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة ، وتراث قديمة، فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي ﷺ على مسمع من رجل خزاعي، فقام هذا فضربه، فأثار ذلك كامن أحقاد بكر واستشاطوا غضبًا، فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة، فأمدتهم قريش بالعدة والرجال، ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم، وقتلوا منهم، فأرسلت خزاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها.

أما قريش فإنها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذي تم بينها وبين المسلمين، فندمت على هذه الفارطة التي ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر، فأرسلت إذ ذاك أبا سفيان زعميها إلى المدينة ليوثق عرى الصلح، ويمد في أجله، فخرج حتى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ما جاء به إلى المدينة فقال له عليه الصلاة والسلام: هل كان من حدث بعد. قال: لا. فقال الرسول: فنحن على مدتنا الأولى وصلحنا السابق، ولم يزد على ذلك. ومن المعلوم أن قريشًا بفعلتها قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق، وقد شعر

زعيمها بما أضمره النبي ﷺ لقريش، فتوسل إليه ببعض وجوه العرب وزعمائهم فلم يفلح.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر، وأخبر أبا بكر بما عزم عليه، فقال له أبو بكر: أو ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: نعم، ولكن غدروا ونقضوا. ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة، وسار النبي ﷺ في عشرة آلاف مقاتل إلى مكة، حتى إذا وصل إليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة، ودخل هو من أعلاها، ونادى مناديه: «ألا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». نعم إنه أهدر دم جماعة وأن تعلقوا بأستار الكعبة، لأنه اعتبرهم كما يقال في هذا العصر «مجرمين سياسيين».

واعلم أنه لم يقاتل في هذا الفتح إلا جيش خالد بن الوليد، ولكن بعد أن تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا، وقتل من جيشه اثنان، فكان دخوله مكة عنوة.

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الأوثان والأدناس، ثم خطب في الناس، فبين كثيرًا من الأحكام، ثم ختم خطبته بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].

ومن آدابه ﷺ وشيمه الكريمة، ما ورد في كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة، ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام، فجاء وهو يرتعد خوفا، فقال له الرسول: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

وعلى أثر هذا الفتح المبين، وتدمير عصابة الوثنيين، أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا، إلا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الأولى، فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف، وقالوا: لقد فرغ مُحَّد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزه قبل أن يغزونا. أما النبي ﷺ فإنه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه، أجمع رأيه على المسير إليهم، فخرج في اثني عشر ألفا حتى وصل إلى العدو، فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين إذا أعجب المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئًا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولوا مدبرين، لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأيدهم بروح منه، فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمته هي العليا، والله عزيز حكيم.

هذه هي جل الغزوات وأقواها في تأييد الإسلام وإعلاء كلمته وتقوية سلطانه، فهل رأيت في جميع ما قصصته عليك، وإنه لحق، أن النبي بدأ أحدًا بعدوان؟ كيف وهذا كتاب الله يقول: {لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٩٣].

ارجع إلى كتب السير، وجرد نفسك من شوائب التحيز، فلن تجدن مغمز إبرة للشك فيما قصصته عليه. وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ، يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل في حياته سيفا لإرغام أحد من الناس على الدخول في دينه، ولكن الهدى هدى الله يهدي من يشاء. ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا إلى الله ودينه، سالكين طرق العسف والإرهاب، وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى في الدعوة، كما قال: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥]، وقال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت:٤٦].

انظر إلى إبداع كتاب الله في الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح، مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة، حيث يقول:{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران:٧٩].

دعوة النبي (ص) لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية، فتراهم يتشدقون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان، مختلفة باختلاف أهلها، فيراعى في القوانين والشرائع والأماكن، وطبقات العالم، ودرجات ارتقائها في التحضر، والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات،

التي تتفاضل فيها الأمم، وتتفاوت طبقاتها باعتبارها، ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم، فحكموا بأن شرائع الإسلام وسننه جاء بها نبي عربي، لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى إلا قليلا جدا، كما أنه لم يعلم ما سيتوالى بعده من الأمم المختلفة، والأحوال المتباينة، والعصور التي تكاد تكون متباينة في مقتضياتها ومطالبها وأحكامها. فكأني بأمثال أولئك القوم، قد أقاموا على أنفسهم الحجة، بأنهم لا يفقهون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى، يسمعون القرآن، وإنما مثله فيهم كمثل الذي لا ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، ويرون آياته بأعينهم، وأنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

الإسلام صالح لكل زمان

فيما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم، أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الإسلامي، دين الفطرة البشرية التي فطر الناس عليها في كل زمان ومكان، صالحا لكل أمة كل جيل، مصلحا لكل من استمسك بسببه المتين، وعمل بكتابه المبين.

اعلم أن دين الله في كل الأمم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الأمم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها، وإنما الذي يختلف باختلاف ذلك هو الأحكام الفرعية، يشير إلى ذلك قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل

عمران:٦٤]، وقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء:١٦٣].

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به، وتذكير الناس أن يتمسكوا به، فما كان له أن يبطل حقا، أو ينكر صالحا، أو يجحد نبيا، أو يستقبح حسنا، ولكنه جاء مؤذنا فينا بأنه قد أمن بما أنزل الله من كتاب، وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله، كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحي إليه أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وبأن من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدًا، ولكن بما قرره الله من الحق، وأوحى به إلى أنبيائه من قبل، كما قال عز من قائل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة:٤٨]

على أننا نعلم ما تقرر في الإسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، فترى من جميع ما تقدم أن الإسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة في اعتبار ما سبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس العادلة، سواء ورد بها دين إبراهيم، أو دين عيسى بن مريم أو غيرهما. نعم إن الإسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة، التي جلبها عليهم عنادهم وظلمهم، كما قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} [سورة النساء: ١٦٠-١٦١] فإنهم لم يزالوا كذلك، حتى جاء المصطفى عليه الصلاة

والسلام حريصا على المؤمنين رءوفا بهم رحيما بهم، فأباح الطيبات من الرزق، ولم يكلف نفسا إلا وسعها، فكان دينه بذلك أكثر الأديان ملاءمة للطباع، والعادات، والقوى البشرية على اختلافها، ولذا كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين.

ربما قيل كيف ذلك؟ مع أن أكثر الأحكام النظامية والنواميس التعاملية، فقد وضعها بعد النبي الفقهاء والخلفاء والأمراء، فلم يحط الإسلام في بدء نشأته بكل ما يلزم البشر من القوانين والأحكام، فنقول: إن جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام، إنما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف، من الاجتهاد والقياس، كما قدروه واعتبروه بالأحكام العامة، التي قررها لهم الشرع، على ما سنأتي على تفصيله قريبا، فكل ما جاء مبنيا على قواعد الدين، فهو دين، سواء نص عليه الشارع نفسه، أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح، وهذا هو كون الدين الإسلامي دين الأبد وختام الأديان، ولنأت لك الآن بشيء من أصول الإسلام لترى منها وجه ما قلناه لك آنفا فتتدبره، فإن للدين، كما سترى، قواعد أصلية ثابتة، تقدر بها الأحكام، حسبما تقتضيه الأحوال المختلفة، في الأزمان المختلفة، بين الأمم المختلفة.

أصول الإسلام

الأصل الأول:

الاجتهاد، وأعني به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم، والسنة الصحيحة، حسبما تصل إليه الأفهام السليمة، فكل من يعرف لغة القرآن لا ينبغي له بحال ما أن يقلده غيره تقليدًا متى قدر على فهمه، وفهم الكتب الصحاح في السنة، فلم ينسد، ولن ينسد باب الاجتهاد، برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية، ويقيموا عليها أوصياء من الأولين، حتى تسير كما ساروا، وتقول بما قالوا، فإن السلف الصالح رضي الله عنه، ما كان مقلدًا ولكن تصدى لكتاب الله، فعمل بما وصل إليه إدراكه، وبلغه جهده، ولو كان بعض ذلك خطأ في الواقع، فإن الله لم يحرم من الأجر أي مجتهد.

نعم إنه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا، ولمن اجتهد فأصاب أجرين، إن أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصدر الأول منه لأسباب، منها: انتشار العجمة في المسلمين، وعدم استطاعة كثير منهم، وكانوا لا يحسنون العربية، أن يفهموا القرآن على وجهه، ومن الأسباب أيضًا فيما أظن، جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم، وعدم معرفتهم أحكامه ولغته، وإلا فكيف عموا عن قوله تعالى: «ولقد يسرنا – سهلنا– القرآن للذكر – للتذكر– فهل من مدكر» أي

فهل من طالب علم منهم، ومتفهم له فيعان عليه، أم كيف غفلوا عما قبح الله به القدماء {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠] وإذا شئت أن تستقصي ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين، والتشهير بهم، فعليك بقراءة القرآن الكريم، فستجد منه ما فيه مقنع، وما يتذكر إلا أولو الألباب.

الأصل الثاني:

القصد في الأعمال، وإقامة ما لا يشق على النفوس من التكاليف، فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، فكل ما ليس في وسع الإنسان أن يقوم به، فلا تكليف فيه، والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله، ولا يوقعه في الغناء والتعب، فإن هذا هو ما يفهم من التعبير، بكلمة وسع التي معناها السعة، وعدم الضيق، ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو في الدين، فقد ورد في البخاري: «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه» وورد فيه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئًا من الدلجة والقصد» ومن هنا لا ينبغي لمسلم أن يتغالى في دينه، وأن يتباعد عن المباحات، وأن يحمل نفسه فوق طاقتها، فإن هذا ليس من الدين في شيء، واعلم أن المتغالين في دينهم، أقرب الناس إلى العجز عن القيام به، واحتمال تكاليفه، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» وقال: «إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» وقال تعالى: {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ

حَرَجٍ} [الحج:٧٨]، وقال أيضًا: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥]، ومما يناسب هذا الموضوع، نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم، ومنتحليه في مصر، وذلك لبس القبعة فلقد هاج وماج بعض مدعي العلم على من قال بحل لبسها للمسلم، فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه، إن القبعة ليست لباسا دينيا وإنما هي لباس أمم مختلفة الملل والنحل، فمنهم النصراني ومنهم المجوسي، ومنهم اليهودي، ومنهم العربي المسلم، يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء إفريقية وغيرها، نعم إنها تختلف أشكالها وصورها، ولكنها ذات اسم واحد، تندرج تحت نوع واحد.

فإن كان شبهة أولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح، قلنا أن هذا لا يقتضي التحريم، فهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم العمائم التي فوق رؤوسنا أو القفاطين التي تتدلى أكمامها، أو الجبب (الفرجيات).

فليفقه أولئك القوم أنهم يقفون ما ليس لهم به علم، والله تعالى يقول: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء:٣٦] أن الطيالسة التي استعملها العلماء في خلافة العباسين إنما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم، كما أن هذه الجبب الواسعة المستعملة في مصر، إنما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية.

واعلم أن من موضوع هذا الباب، تحرج بعض شبيبة المسلمين، أن يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى إذا سألتهم في ذلك قالوا: إنما لا يمكننا التحرز من النجس، لاسيما قطرات البول، وكثيرًا ما يقضي الإنسان حاجته، فلا يجد من الماء ما يتطهر به، ومنهم من يقول: إن من المشقة أن أخلع نعلي، وألبسهما عند كل صلاة، ولا يمكنني أن أصلي بهما حسبنا يفتينا علماء المسلمين، لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة، التي تكون عادة في الطرقات، فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التي هي سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى، وناهيك عن الفحشاء والمنكر، انصياعا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون.

فمن لي أن يرى أحداث المسلمين ما رواه البيهقي مرفوعا «إذا جاء أحدكم المسجد، فليقلب نعليه، فلينظر أفيهما خبث، فإن وجد فيهما خبثا فليمسحهما بالأرض ثم ليصل فيهما» وما رواه البيهقي أيضًا عن أم سلمة: «أنها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشي في المكان القذر، فقالت أم سلمة: قال رسول الله ﷺ يطهره ما بعده»، وفي رواية له عن أبي هريرة ﷺ: قلنا يا رسول الله إنا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الطرق يطهر بعضها بعضا» وفي حديث البيهقي مرفوعا: «إذا وطئ أحدكم بنعليه في الأذى فإن التراب له طهور» وقد رأى المالكية أن المعتمد في مذهبهم أن إزالة النجاسة سنة أعني أنها لا تبطل الصلاة بوجودها وإن كانت مكروهة معها، فلم لا يصلي ذلك المسلم في نعليه؟ ولم لا يصلي وفي سراويله قطرات البول، ولم لا يسهل عليه التحرز منها، ولم لا يصلي المسلم في بلاد لم يستطيع أن يستنجي فيها، أيظنون أن

الله يريد بهم العسر مع أن الله يقول في قرآنه: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥].

الأصل الثالث:

من أصول الإسلام أنه لا ضرر ولا ضرار، فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله، كما لا يجوز له أن يضار غيره، فيدخل في ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق، وشرب المسكر، والمقامرة، وإيذاء الغير بأي نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيشون فيهم، كقتل النفس، والسرقة، والرشوة، والخداع، والتمويه، والتدليس، وشهادة الزور.... وهلم جرا.

لعلك اطلعت على ما قرره الفقهاء من إباحة التخلف عن الجمعة لأسباب كثيرة، منها أن يكون بالإنسان بخر، أو رائحة ثوم أو بصل، أو به مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل ما يضر، أو تشمئز منه نفوس المصلين، ولا يخفى أن هذا الأصل ينبني عليه كثير من الأحكام الفرعية، والنوازل اليومية في كل عصر.

الأصل الرابع:

سد الذرائع وإعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات، فكل ما أفضى إلى مباح فهو مباح، وكل ما وصل بك إلى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعك في محرم فهو محرم، فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحكم

فقدرها بمعيار غايتها، ولنضرب لك مثلا ما جاء به الشرع من إباحة تعدد الزوجات، فإن هذه الإباحة قد قيدها الشرع بقيود منها: العدل، ومنها: أن لا يفضي التزوج إلى ضرر أو محرم أو فساد، فإذا قسنا ذلك بما حصل عادة على أثر التعدد من الشقاق، وإفساد ذات البين وإغفال الرجل أمر أولادي إحدى الزوجات إرضاء لغيرها، أو قسوته عليهم، وإيذائه لهم، وإذا قدرنا تلك الوسيلة وهي تعدد الزوجات بما تفضي إليه من المضار، فيمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج غير واحدة.

الأصل الخامس:

من أصول الدين الحنيف إعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به، فإذا غلب على الظن أن العمل مفض إلى محرم أو مكروه فإنه يعطي غايته، فيجرم أو يكره، فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق، حتى ينبني عليه تحريم ذلك على الرجال، فإننا على تسليم أنه غير محقق جدلا، لا يسعنا أن ننكر أنه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينا.

الأصل السادس:

من أصول الإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض، وأولى بي هنا أن أقتطف ما جاء لأستاذنا الحكيم الشيخ مُحَمَّد عبده في مقالات الإسلام والنصرانية إذ قال ما نصه:

«اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ننظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل، أخذ بما يدل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في فهمه. والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل، وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ، كل ذلك مهد بين يدي العقل السبيل، وأزيل من أمامه جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد. فماذا عسى يبلغ إليه نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا، وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم، إذا لم يسعهم هذا الفضاء، إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها، ولا سماء بأجرامها وأبعادها».

ولا يخفى أن تقرير هذا الأصل في الإسلام، يدلك دلالة واضحة على أن الدين المحمدي لم يلزم العقل أن يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه، بل إنه فوق ذلك قدمه في العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول.

الأصل السابع:

وجوب امتثال ما قاله النبي ﷺ شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي، وقد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل إرشاد العالم إلى طريق النجاح والاستقامة، وإقامة العدل فيهم، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة، وبينا أيضًا أن الإسلام يقدم العمل بمقتضى العقل

على ظاهر الشرع عند التعارض. وقد علمنا النبي ﷺ أن نتمثل كل ما جاء به عن الله وأنه لا يجب الأخذ بما ورد في ذلك:

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء: يلقحون، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح، فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئًا. قالوا: فأخبروا بذلك، فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذني بالظن ولكن إذا حدثكم عن الله شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل.

وروى مسلم أيضًا عن رافع بن خديج قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نلقحه، قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا. فتركوه فنقصت، قال فذكروا ذلك له، فقال: إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر.

وروى أيضًا عن أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال فخرج شيصًا، فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

كأني بك ترى ما حكم به النبي ﷺ على نفسه، وهو سيد المنصفين، صرح لك الرسول بأنه إنما هو بشر، وإن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم، وأن عصمة الرسل إنما تجب فيما إذا بلغوا

عن الله شيئًا من شرائعه ونواميسه، ومن هنا نعلم أنه لا يجب الأخذ بما ورد عن النبي ﷺ من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لأن هذا ليس مما يوحى به إليه من الشرائح.

الأصل الثامن:

المساواة بين المسلمين في الأحكام وكذا بينهم وبين جمع من لهم ذمة وعهد، فإن لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، فلا يفضل أحد أحدا في اعتبار الشرع إلا بالتقوى والعمل الصالح «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» فقد جعل الله الغني والفقير، والمأمور، والأمير والعزيز والحقير، سواء في أحكامه، سواء في ذلك الأحكام الدنيوية والأخروية، واعتبر ذلك بصيغ العموم، التي تراها في غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)} [الزلزلة: ٧–٨]. ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله، ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم، طالما حابوا الملوك والأمراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصا منهم على استرضاء من لا يضرون ولا ينفعون، راضين بما سخط الله عليهم، إذ فرقوا دينهم وكانوا شيعا، فشحنوا كتبهم بما تضارب من الأقوال، وخالفوا أمر القرآن كما في قوله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [آل عمران:١٠٥]، وقال تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال:٤٦]، وإذا أردت أن تأتي على ما ورد عن

النبي ﷺ في الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة.

الأصل التاسع:

أن لا تزر وازرة وزر أخرى، ففي سورة الطور: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور:٢١]، وفي سورة المدثر: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدثر:٣٨]، {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠)} [النجم: ٣٨-٤٠].

ولا يقال أن من أحكام الشريعة ما لا يقتصر على الجاني كما في دية القتيل فإنها على عائلة القاتل، وكما يؤخذ من قوله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ} [الأنفال:٢٥]، لأنا نقول في أمر الدية إنما ألزمت بها العائلة في الشعوب التي لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث أنهم يكونون يدًا واحدة على من سواهم، فإذا أصاب أحدهم شيء تعاهد الباقي على الأخذ بثأره أو المطالبة بديته، كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن، ولذلك نجد الفقهاء ينصون على أنه لا عاقلة في الأمم التي لا تتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الأمم التي لا أثر فيها لتلك اللحمة التي تجعل الحي أو البطن أو القبيلة كأنها رجل واحد فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم، وهذا من الوجوه التي تبين لك كيف جاء الإسلام مطابقا للأحوال البشرية، ملائما على اختلافها.

الأصل العاشر

أن جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الإمام أو من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما أن من أصوله جواز التحكيم.

واعلم أن الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهي قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع أمر تحديده إلى الحكام ونوابهم، فقد أجمع الأئمة على أن التعزيز مشروع في كل جناية لا حد فيها ولا كفارة، وجوز الإمام مالك للإمام الحاكم أن يبلغ بالتعزيز أعلى درجات الحدود المقدرة. أما التحكيم فقد أجازه الشارع في الأصول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأي فيما شجر بينهما، وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار قول الحكم أمرًا مقضيًا لا يتوقف تقريره وثبوته على أن يقرره قاض شرعي ولا أمير ولا حاكم.

الأصل الحادي عشر:

تقدير كثير من الأحكام بما تعورف عليه بين الناس، ولا يخفى أن هذا الأصل قد وسع دائرة الأحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها، فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فإنه يراعى في تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين، فرب نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم أخرى، وقد كثر التعبير بكلمتي «المعروف» و«العرف» في القرآن العزيز، وعلق عليهما تقرير كثير من الأحكام، ومن

البديهي أنه لا معنى للمعروف والعرف إلا ما كان متعارفا مألوفا غير مستنكر، كما أن المنكر هو ما لا يجري به عرف فمن الآيات المحتوية عليهما قوله تعالى: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ} [محمد:٢١]. وقوله: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة:٢٢٩]، وقوله: {إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [النساء:١١٤]، وقوله: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء:١٩]، وقوله تعالى: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق:٢]، وقوله: {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق:٦]، وقوله: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة:٢٣٣]، وقوله: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا} [لقمان:١٥]، وقوله في شأن الأوصياء: {وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء:٦]، فترى في هذه الآيات، وفي كثير غيرها، أن الله تعالى فوض أمر تقدير كثير من المعاملات، إلى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو بأهل المدينة أو غيرها، بل أطلق الأمر إطلاقا، ولا ريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان، وإذن كان من القصور تعرض بعض الفقهاء إلى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة، وتقدير كثير من الأحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبي ﷺ، كما أن من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها، فإن هذا تخريج للكتاب العربي المبين على غير ما أريد منه، ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى

بألفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والأحوال، فمن ذلك كلمات «الصالحين» و«الصالحات» و«صالحا» في كثير من الآيات، فإن المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سيئًا، كما يؤخذ من قوله تعالى: {خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا} [التوبة:١٠٢]، فإن هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وأن كل سيء فهو غير صالح وأنه لا صلاح في سوء، فيدخل في ذلك الملك الجائر، والحاكم الذي أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد في عروقها وتمشى الخلل في أطرافها حتى أصبحت لا تزداد إلا نقصا ولا تعظم إلا فسادا، فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه، ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا، ومن هنا فسر أستاذنا قوله تعالى: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء:١٠٥]، بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لأنفسهم ما استطاعوا من القوة وأحسنوا إلى أنفسهم فكاتفوا الأمم في الأخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات إلا من أسبابها، ولم يأتوا البيوت إلا من أبوابها.

التوكل غير التقاعد

ومما ينخرط في هذا الباب خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذي حض عليه القرآن غير مرة إذا قالوا أن التوكل هو تفويض الأمر إلى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة، ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات، ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن من يذكر اسم الوهاب كذا مرة وهبه الله

من المال ما يزيد على حاجته، ومن قرأ: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٣]، كفاه الله مؤونة السعي لطلب الرزق من معاهده العادية. ولقد كثر هؤلاء في المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيرًا من النعم وأن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ونددت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالإسلام والمسلمين، لما نزل بهم من الضعف، وانحلال العقدة والفشل، وزعموا أن منشأ ذلك هو أصول الدين الإسلامي، محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين، وبما كذبوا على أنه في تأويل آياته الكريمة نحو: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٢٢]، ونحو: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ} [هود:٥٦]، ونحو: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٣]، ونحو ما ورد في الصحيح من قوله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

إنني لا يسعني هنا أن أفند جميع ما قيل في هذا المقام لضيقه، ولكن حسبي أن أنبهك إلى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة، وبرهان واهن، فإن نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الإسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد، لم يصبهم إلا بعد أن تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما أرشدهم إليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية، فإنه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات، وخلق ما

بينهما من لحمة السببية. فالتماس تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء، بل إنه نفس التوكل، وما تفسير أولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق، والتقاعد عن الكسب والتحصيل، مما أفضى بهم إلى الاضمحلال، إنما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم.

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه، وبجميع أعماله أن لكل شيئًا سببا لا يمكن الحصول عليه إلا باتخاذ ذلك السبب، أو ما سمعت قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} [النساء: ٧١]، ونحو: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}[الشورى: ٣٠] إلى غير ذلك من الآيات:

على أنك لو تأملت قليلا في قوله ﷺ: لرزقكم كما يرزق الطير... الحديث، لتجلى لك الأمر واضحا لا لبس فيه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل – لرزقكم كما يرزق الطير تمكث في أوكارها والله يرسل إليها أغذيتها– بل قال: تغدو خماصا وتروح بطانا.

وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت به الأرض وقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقال رجل من القوم: لا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول الله! قال: لا، اعملوا فكل عمر ميسر لما خلق له. ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)} [الليل: ٥–٧].

على أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة، وأنها من الأمور الفطرية التي فطرت الممكنات عليها، فقال في الكتاب العزيز: «إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم». ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا (أي أكثرنا) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء:١٦]، فليتق الله المسلمون في دينهم، وليتباعدوا به عن النقائص التي شوهوه بها، وعرضوه بسببها إلى الطاعنين وغلو الآفكين.

والخلاصة أن الدين الإسلامي، لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والأصول العامة وأشباهها، جاء صالحا لأن يبتغى بواسطته كل خير في كل زمان ومكان، ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وأن شرعه خاتم الشرائع الإلهية، كما أنه لم يخالف في شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التي فطر العالم عليها، ولذلك لا حرج علينا في تسميته «دين الفطرة».

صفات المؤمنين

وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الأمم، قصار النظر، فرأينا أن نأتي عليها هنا تتميما للغرض الذي وضعنا له هذه العجالة، إلا أننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد في القرآن الكريم من صفات المؤمنين، وما يجب أن يكونوا عليه، وأكل إليك

بعد ذلك الحكم في اعتبار مؤمني هذا الزمان، والله يوفقك إلى سبيل الرشاد.

(١) قال تعالى في سورة المائدة خطابا للمؤمنين: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [المائدة:٢] أي لا يحملنكم بغض قوم صدوكم عن المسجد الحرام، على أن تعتدوا عليهم، بل يجب عليكم العدل، كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الإحسان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة أوامره، وفي معنى ذلك قوله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة:٨]، فإن الله يأمرنا هنا أن لا نطيع ما تكنه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه، بل يجب أن يوفى كل ذي حقه، وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل، فإنه أقرب للتقوى.

(٢) وجاء في سورة النور: {وَيَقُولُونَ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة النور: ٤٧-٥١].

نزلت هذه الآية في قوم ادعوا أنهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه، حتى إذا دعوا إلى شريعته لتفضل بينهم ألقى الشيطان في ضمائرهم أنهم ربنا ظلموا فأخذتهم العزة بالإثم، فأعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون، ولكن إذا كان لهم الحق جاءوا إلى المحاكم سراعا مذعنين، وقد بيّن الله تعالى هنا أن تلك ليست من صفات المؤمنين في شيء، وما كان المؤمنين إلا أن يسعوا ويطيعوا وينصاعوا إلى قضاء الله وأحكامه سواء أكانوا ظالمين أم مظلومين.

(٣) وجاء في افتتاح سورة المؤمنون {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [المؤمنون: ١–٥]إلى أن قال: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)} [المؤمنون: ٨–٩]، فليت شعري كيف يكون لمؤمني هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم في اعتبار الشرع مؤمنون، مع أن الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون، والذين هم عن اللغة مقبلون، والذين هم للزكاة مانعون، والذين هم لشهواتهم مرضون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون.

(٤) وجاء في سورة الأنفال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال:٢]. إلى أن قال: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال:٤].

(٥) وفي سورة الحجرات: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات:١٤]. إلى أن قال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات:١٥]، فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف، وانظر إلى استعمال الحصر هنا في قوله «إنما» ثم تأكيده ذلك بقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر:٨].

(٦) وجاء في سورة الممتحنة: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ }[الممتحنة:١٢]، يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الإيمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمدًا رسول الله، فإن هذا لا يكفي، ولقد بين الله في هذه الآية البيعة التي يكون بها المؤمن مؤمنا فتدبرها حتى تعلم مبلغ إيمان الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم. فبأبيك أيها المؤمن أتجد فيما وصف الله به المؤمنين: اتخاذ المسابح، وإطالة اللحى، واختضاب الشعر، وتحديب الظهر، وملازمة الزوايا؟ ألا إن الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا مما ذكروا به.

الخلاصة: أن من آثار الإيمان القلبي الصادق إقامة ما وقع الإيمان به، وملازمة حدوده، ومخالفة وساس الصدور، فمتى رأيت من ينقاد إلى شيطانه، ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته، فاعلم أنه غير مؤمن. وما رأيت ما قاله تعالى في قرآنه الكريم: {إِنَّهُ-(أي الشيطان)- لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل:٩٩]. فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم أنه غير مؤمن. أفيحسب أولئك الضالون أنهم على شيء، وقد جاء في البخاري عن سفيان بن عيينة قال: ما في القرآن أشد علي من قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [المائدة:٦٨]– أي القرآن– ومعنى إقامة هذه الكتب امتثال جميع ما فيها، والإتيان به على وجهه، فإن جاء العمل دون ذلك، فإنه لا يسمى إقامة، لما حوته تلك الكتب الشريفة من الأحكام، فكيف لأحد بعد ذلك أن يدعي أنه على شيء من الإيمان بالله وكتبه ورسله حتى يتمثل ما فيها.

ومن هنا يتضح أن الإيمان الصادق يستدعي الانقياد والعمل، وهذا والله أعلم سر ما رواه البخاري في صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن».

قال القسطلاني: الإيمان هو التصديق بالقلب، والاعتراف باللسان– وتقرره الأعمال الصالحة– واجتناب المناهي، فإذا زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، ذهب نوره وبقى في الظلمة فإن تاب رجع إليه....أهـ. ومثال ذلك في الكتاب الكريم والسنة كثير، ولكنها لا تعمى الأبصار.

هذا والمستقرئ لعبارات القرآن الكريم، فلما يجد فعلا أو وصفا مشتقا من الإيمان إلا وهو مشفوع بعمل الصالحات» وقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ

بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا} [التغابن: ٩] وهلم جرا. يريد أنه بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول إلى أن مجرد معنى الإيمان في اللغة، أي الاعتقاد، لا يكفي في إلحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الأعمال، وقد ضمن الله تعالى الأمن والهداية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جور، فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢].

الرق في الإسلام

كانت القوانين في الأزمان السالفة من الأوضاع البشرية، فكان الفرد والأفراد يسنون ما شاءوا من النواميس التي لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة بين أفراد الإنسان فيما لهم وما عليهم.

كان محض إرادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التي يسار على مقتضاها، فكان عدم تساوي الأفراد في القوى الجسمية والعقلية، الذي اقتضته سنة الكائنات الحية، هو منشأ تسخير القوي للضعيف، وغلبته عليه، حتى أفضى ذلك بعد إلى وجود ناموس عادي اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك، وقاهر ومقهور.

إن استخدام شخص لآخر، واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر، وهو لا ريب أساس الاسترقاق الذي نشأ مع نشأة الإنسان، فإن من استقرأ التاريخ وجد أنه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده في أهله، وجدت أجرامه في كل جاهلية، ثم تعدتها إلى ما كان معها من الأمم

المتحضرة، وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة إليه وزوالها أصلا، فلقد عرف الاسترقاق عند اليهود واليونان والرومانيين، كما عرف بين قدماء الألمان ولقد أفرط الأخيرون في استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل في ذلك.

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق: أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو في دين عليه، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضي ست سنوات عليه في خدمة من هو في ملكه إلا إذا فضل البقاء رقيقا، والنوع الآخر: استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التي كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وإرضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم، فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع، ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوانات العجم، سواء في ذلك العبيد المستخدمة في المنازل، وعبيد الحقوق والمزارع، فإنهم كانوا يقضون حياتهم، مبغضين، مهنيين، معزولين، محقرين، مسخرين. ثم جاء المسيح عليه السلام، فلم يمنع الاسترقاق، ولم يضع حدودا تراعى ولا وسيلة تؤدي يوما ما إلى نسخة أو تقليله، نعم إنه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق، وببعض نصائح للسادة، ليمكنوا الرقيق من تلقي ما جاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينية، على أن كثيرًا من الأمم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق، وأقساهم في معاملته.

وانتشر الاسترقاق بين الرومان، منذ نشأتهم الأولى، من غير تفريق بين كل من رومانيا أو أجنبيا، فكانوا يملكونهم إما بحرب أو شراء أو اختطاف، فلقد كانوا يعتبرونهم متاعا، وتغالوا في السيطرة عليهم، فكان للسيد أن يتصرف في عبده حتى كان له أن يقتله، نعم، أنه قد هذب هذا القانون بعد، حتى خفف في الجملة عن الأرقاء أعباء ما كانوا يحتملون، ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة، وكان لأمراء الرومان وأشرافهم الألوف من الأرقاء، يستخدمونهم فيما شاءوا، ويوقعون بهم من الآلام ما شاءوا غير مسئولين عما فعلوا.

إن دخول الدين المسيحي في أوروبا لم يقلل من الاسترقاق إلا من جهة واحدة، ذلك أن الرقيق كان يصير حرا بالرهبانية، وانقطاعه إلى خدمة الدين، على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيه في خلال ثلاث سنوات، أما من الجهات الأخرى فإن الاسترقاق بين مسيحيي أوروبا لم يكن بأخف بطشًا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس، ولقد جاء في جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الأمور الطبيعية، كما أنها قدرت أثمان العبيد، واعتبرت في تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والأعمال، ومنها عدم إباحة التزاوج بين الأرقاء، ولا بينهم وبين الأحرار، وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة فيما إذا تزوج الرقيق حرة، فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل، وقضى على الزوج أن يحرق حيا، كان ذلك حال الاسترقاق في أوروبا في القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام.

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية، وأسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية، لم يقف أمر الاسترقاق عند الحد الذي كان مألوفا عند سلفهم، بل كان لأشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل، والرأي الأعلى والكلمة النافذة في الفلاحين الذين تحت أيديهم، فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم، فلم يكن في ذلك الوقت من أرقى منهم حكمة وأعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التي قلما وضعت بين المالك وبين والمملوك شيئًا من الحدود.

على أن الكنائس في أوروبا قد اتخذت الأرقاء، وأباحت لغيرها اتخاذهم، كما أن كثيرًا من الناس كانوا يذهبون إلى استحسان ذلك، واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال، ولقطع دابر السارقين قطاع الطرق. (واعلم) أن أقبح أنواع الاسترقاق ما كان في أمريكا الشمالية، ولم يزل فاشيا فيها، حتى كانت الحروب الدينية، التي تأججت نارها في سنة ١٩٦٥ الميلادية.

نحا كثير من الأمريكيين نحو ما كان عند الأمم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ما هم عليه من العلم الغزير، والتحضر الذي لم يسبقوا إليه، فكان الأمريكي الأبيض النصراني يملك الأمة السوداء، ويولدها البنين على أنه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الإسلام، بل كان لابنه الأبيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه.

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصراني لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه، كما أن الأمم المسيحية، على اختلافها وتباين مشاربها، كانت لا تبالي أن تسترق من شاءت، وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت، وتعامله كما شاءت، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم، فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا وغيرهم من الأمم المتحضرة على حماية نوع الإنسان، والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض إلا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية.

وإذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية، فدونك ما فعل الإسلام في الرقيق والاسترقاق:

سوى الإسلام بين الأمم من غير اعتبار لاختلاف أصنافها وألوانها، فسوى بين الأبيض والأسود، والبدوي والمتحضر، والرعايا والمرعيين، والرجال والنساء، والمسلمين واليهود والنصارى، ما داموا في سلم.

انظر إلى المسلمين وهم في المسجد يؤدون فريضة الصلاة، أو في مكة وهم يحجون البيت الكريم، أو في المحاكم الشرعية في صدر الإسلام، أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر، أو من فاضل ومفضول؟ كيف والله تعالى جعل المؤمنين أخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق، فلقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع:

«أيها الناس، إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس، فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد

تركت فيكم ما إن أخذتم به –كتاب الله– لن تضلوا بعدي. أيها الناس أن ربكم واحد، وأن أباكم واحد، وأن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى».

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا، وهم في مقدمة الأمم حضارة وعلما؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم، وتجنبوهم وحرموهم كثيرًا من المزايا التي استمتع بها البيض، ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافي عن مخالطتهم، حتى لقد خصصوا لهم في مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها.

زعم كثير من الناس، ولاسيما من غير المسلمين، أن الإسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض، مستدلين على ذلك بما كان يفعله النخاسون من أهل البادية، وأهل السودان، وكثير من الأتراك، وقد تقدم لنا أنه لا ينبغي الاستدلال على صحة الدين أو فساده، بما يفعل أهله، فإن هذا من العبث الذي ينبغي أن تصان عقول العقلاء عنه.

إن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا، ثم أنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعية، لم تقم إلا لإعلاء كلمة الله تعالى، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم، فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب، التي أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم، لا لغرض

سوى النهب والسلب والبطش، مع العدوان على الغير، لا يجوز استرقاقهم بحال، سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم، كتابيين أو وثنيين أو مجوسا.

أما استرقاق غير المحاربين، ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب، كعبدة الأوثان، فقال مالك والشافعي وأحمد في إحدى روايتيه أن ذلك لا يجوز مطلقا، فماذا ترى فيمن يذهبون إلى الصحاري ويختطفون من وصلت إليه أيديهم من السودان وغيرهم، ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع، فيعرضونهم في الأسواق عرض الحيوانات العجم، وكثير منهم مسلمون؟ وماذا ترى في كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين، يجيئون إليهم ويسومونهم كما يسوم المتاع، ثم يسوقونهم إلى بيوتهم إما للخدمة وإما للافتراش؟ وماذا ترى في الذرية التي ينتجها افتراش بني على هذا الاسترقاق الفاسد؟ إن الدين لبرئ مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة، وطاهر مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس، قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسول، فافتأتوا على الله ونسبوا إليه ما نسبوا، متقولين عليه، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم.

(واعلم) أن هناك نوعا من الاسترقاق، فشا في المسلمين أيضًا، وهو لا يبيحه الشرع أيضًا، ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم، قد يحدو بهم الفقر المدقع، إلى جلب بناتهم بأيديهم إلى أسواق بعض المدن الإسلامية وهن صغار جدا ليبيعوهن إلى الأمراء والمثرين من الرجال، ولقد يكون منهم المراهقات والنساء، حتى إذا صارت إحداهن في ملك أحد استباح منها واتخذها فراشا، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة، وما

يخدع إلا نفسه من حيث لا يشعر، فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الإسلام، ويدخل في دينه ما أملته عليه وساوس الأوهام.

وقد كرم الإسلام الأسرى فشرع أن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله، وأن مجرد دخول العدو المحارب دار الإسلام أمان له من السبي عند مالك والشافعي وأحمد ابن حنبل.

وأن للرقيق في الإسلام أن يتزوج بنت سيده، فينقلب بذلك سيد البيت.

أين هذا مما سبق لنا نقله، من قوانين أوروبا في القرن الثالث عشر، من تحريم التزاوج بين الأرقاء، وكذا بينهم وبين الأحرار وأنه يجب قتل المرأة التي يتزوجها عبد، كما يجب إحراقه حيا.

وقد وضع الإسلام من الأصول والنواميس، ما كاد يقضي على الاسترقاق، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك على ما نعلم في أمر الاسترقاق، وبديهي أنه لا يمكن أن يزيل النبي عليه الصلاة والسلام في بضع سنين أمرا ألفته النفوس، واستولى عليها ذلك الاستيلاء، لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يرغب الناس في العتق، كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالإعتاق، فمن ذلك:

(١) أخبار النبي ﷺ أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادة، وأقربها قبولا عند الله.

(٢) أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الأيمان.

(٣) أن مكاتبة العبد مستحبة بالإجماع، وللإمام أحمد في رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر، وأن للعبد الاستغلال، ليحصل على ما يدفعه لسيده من نجوم الكتابة، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين يشاء وفيما يشاء.

(٤) إذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما بقي، فالحنفية تجبره على الأداء. وإذا لم يكن معه مال، ولكنه قادر على الكسب، فالمالكية تجبره على الكسب، لأنه ليس له تعجيز نفسه عنه مادام قادرا عليه.

(٥) يراعى في عقد الكتابة حالة الرقيق، فأقل وعد من السيد، أو أقل احتمال للوعد بالتحرير، يجعل التحرير ضروريًا.

(٦) اتفق الأئمة على أنه لو كان يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام، فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر. فترى في هذه الصورة أن قاعدة «البينة على المدعي واليمين على من أنكر» قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق، فلم يطلب الشرع من المدعي البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه، ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب، ما وجد لذلك سبيلا.

(٧) قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطي الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته، أو أن يشتري الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم.

(٨) أن من افترش أم، وأتى منها بأولاد، فهي أم ولده لا يجوز له أن يبيعها، ولكنها لا تتحرر تماما إلا بعد موته.

(٩) استوصى النبي ﷺ بالأرقاء خيرا، فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين، فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل، أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير، كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في المأكل والملبس ونحوهما.

المرأة في نظر الإسلام

شذرات

قبل التكلم عن المرأة في الإسلام، نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف في الأمم المختلفة، ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة في الإسلام، غير معولين في جميع ذلك إلا على كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة.

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل، حتى ضربت بهم الأمثال، أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء، من غير وقوف عند حد، ولا تقيد بشرط، ولا سؤال عن حق، ولقد كان له أيضًا أن يتخذ من الأخدان من شاء.

فإذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي ﷺ، نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع، فلقد كانت المرأة عند وثنيي العرب معتبرة سلعة محضة، فإذا مات رجلها ورثت فيما يورث، حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو أمته، كما كان له أن يهبها لمن شاء، وأن يبيعها لمن شاء.

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنا من ملك اليمين، فلقد كان للأب أن يبيع ابنته قبل بلوغها، كما كان لابنه الذكر أن يفعل

ذلك. وقد كانت العرب تئد البنات، إما من فاقه أو خشية عار يأتينه متى كبرن، حتى قال قائلهم «دفن البنات من المكرمات».

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم، فلم تكن بين الفرس والرومان والشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا أكثر حرمة منها بين العرب.

ومن المعلوم أن أحسن القوانين ما لا يشتمل على التضييق ويلائم فريقا دون فريق، وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة المحمدية بتلك النواميس التي تلائم، بلا ريب، أرقى الأمم تحضرا وأصدقهم فكرا، كما تلائم وتنطبق على الأمم الذين لا يزالون في مهد الفطرة الأولى.

المساواة

ساوى الإسلام بين الذكران والإناث في جميع التكاليف الشرعية، إلا في أحوال خاصة قليلة، كما ساوى بين الصنفين في الحقوق المدنية، وجعل لكل من يتقاضى حقه من الآخر، وأن يبيع ويشتري ويعقد ما شاء من العقود، مادام عاقلا رشيدًا.

جاء بذلك الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنا، فتمتعت النساء بما ملكت أيمانهن من أموال وأعيان من غير توقف على إذن زوج أو تقرير مسيطر، من أن معظم أمم أوروبا لم يطلقوا العنان للمرأة أن تتصرف فيما ملكت يدها، اللهم إلا ما أدخلته الحكومة الإنجليزية، وقليل غيرها من أهل أوروبا،

منذ خمسين سنة، من القوانين التي خولت للمرأة فيها شيئًا من ذلك، ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل.

وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم، لا تقرأ، ولا تفهم، ولا تستفتى في أمر، ولا تقضي ولا تأمر ولا تنهى، فهلا علمت ما فعل الإسلام؟.. جاء النبي فكان في بيته أحسن أسوة للمسلمين، ومازال ﷺ تنزل عليه الآيات في شأن النساء، حتى أصبحن {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة:٢٢٨].

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وإناثهم {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} [الأحزاب:٣٤]، فكان الرجل «وكان ما كان في الجاهلية» يأتي إليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الأخلاق، وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع إلى رشدها، وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف، أو الشعوب أو الأمم، في التفاضل. فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء:٣٤]، لم يقل الله أن الرجال قوامون على النساء، مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة البشرية، أو لأن عقولهم تخالف عقولهن، ولكن الله جعل إنفاق الرجل على المرأة من علل الفضل، كما جعل من العلل أيضًا ما قد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا، ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة، ومن ذا الذي يستطيع أن يعتقد

فضل بدوي عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التي وصلت الليالي بالأيام في طلب العلم، حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها. كلا إن الله لم يجعل التفاضل إلا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} [الزمر:٩] وقال: {هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} [الرعد:١٦].

أباح الشرع للمرأة، مادامت من أهل التصرف في مالها، أن تتزوج بنفسها، وأن توكل غيرها في زواجها، ولا اعتراض عليها إلا أن تضع المرأة نفسها في يد غير كفء، فهناك يعترض الولي عليها ويطلب من القاضي فسخ زواجها.

جعل الشارع للمرأة أن تشترط في صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت.

ففي الدر: «إن تزوجها على أن أمرها بيدها صح» قال ابن عابدين: «هذا مقيد بما إذا ابتدأت المرأة فقالت: زوجتك نفسي على أن أمري بيدي، فقال الزوج: قبلت».

ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر، إذ قضى للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم أن في هذا إجحافا بحقوقها، ولكنا عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها، وذلك أن المرأة كما سيأتي عالة على الرجل في معظم أدوار حياتها، فيجب عليه شرعًا أن ينفق عليها، ويأتي إليها بمطالبها، كما يقتضيه عرف القبيل الذي هما فيه، فإذا كلف

الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف، فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية في الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها فأين حجر الإسلام وأين التضييق عليها من هذه المسامحة؟

***

تعدد الزوجات في الإسلام

تقدم لنا التلميح إلى ما حشا به الأوربيون كتبهم من الطعن في الإسلام، متمسكين بما أباحته الشريعة من إباحة تزوج أكثر من واحدة، ولو كانوا يعرفون العربية، ويفقهون كتاب الله وقواعده، ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما ليس من شيمه.

إن النقائص التي مثلت بالإسلام في أعين غير أهله، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح، ميزانا لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه، فمن قائل بسد باب الاجتهاد، ومن أمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب إليه ما ليس من دينه في شيء، ومن عالم اشترى الحياة بالآخرة، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا إلى الزلفى منه، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضي الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم، حتى ضاقت نفوسهم، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون.

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الإنسان مثنى وثلاث ورباع، ولكن الله تعالى يقول: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} [النساء:٣]، فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا في تحريم التعدد، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا، فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيرًا من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض؟ عجبا أغفل الناس كثيرا من القواعد الإسلامية التي يجب تقدير الأعمال بها وزنة التصرفات الإنسانية بميزانها.

واعلم أن المعتزلة، وهم كما تعلم من المسلمين، يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية مادامت الأولى في عصمته، كما ذكره الأمير على كتابه «سر الإسلام» وما ذلك إلا لأنهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارة، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية إعطاء الوسائل ما للغايات من الأحكام، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه.

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا، وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، ولا ريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التي تقتضي ذلك. ولأضرب لك مثلا: رجل تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن، ورجل تزوج امرأة فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يومًا، ورجل تكره امرأته المباشرة في كثير من أشهر الحمل، وهلم جرا. فأمثال

هؤلاء الرجال إما أن يصبروا مع العنت والمشقة، وقليل الصابرون، وأما أن يأتوا الفاحشة، وأولئك هم الخاطئون.

إنني لا أرى، كما يرى كل عاقل، أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت، أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة، ومن الشواهد التي يحسن ذكرها ما نقله الأمير علي في كتابة «سر الإسلام» عن السيدة غوردون الإنجليزية: أنها تأملت في أحوال كثير من البلاد الإسلامية أو الشرقية إجمالا، فرأت أن تعدد الزوجات أكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة، وتقل فيها المرافق، فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن في تحصيل المرافق والأخذ بأسباب العيش، وقد رأت تلك السيدة أن هذه إحدى الضرورات التي يخول معها التعدد.

جمعتني المصادفات برجل إسباني قابلته في لندن، فمكثنا نتحادث في كثير من مسائل الدين الإسلامي، فمما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات، فقال: إنه يتمنى لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته، فسألته في ذلك فقال: إن امرأتي قد أصيبت بجنون، وها هي تلك تعالج في بيمارستان «مجريط» ولها على ذلك سنون كثيرة. ولقد اضطرني الأمر أن أتخذ بعض الأخدان لعدم استطاعتي التزوج بأخرى، فلو أن هذا كان مباحا لنا لكان لي عقب شرعي يرثني فيما لدي من المال الكثير، ويكون لي قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن إليه.

ثم تقابلت في أكسفورد مع دكتور فاضل، وقد جرت عادة الإنجليز أنهم متى رأوا غريبا سألوه في جميع ما يلج في صدورهم، سألني ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات في الإسلام، وذكر أنه يستقبحه، فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الأسباب، ثم قال: إنني أكاد أرى وجه ما تقوله، ولكن لي كلمة في نبيكم ﷺ، فقلت: ما هي؟ قال: إن منزلة النبوة التي ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات، فعند ذلك قلت له: إنني يا سيدي كثير التجارب، وقد رأيت في الإنجليز وفي المصريين والأتراك والفرنسيين وغيرهم من الأمم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله ما دام يملك شيئًا من المال، وهذا أيها السيد أحد الأسباب في قلة ذراري الأغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين، ولو ملكت أيديهم فضلا من المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا، أفتنكر بعد ذلك أن تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة، وأضمن لنمو بني الإنسان؟ فما كان من ذلك الفاضل إلا أن قال: إن معظم ما قلته حق لا مراء فيه. ثم ذكرت له أسباب إكثار النبي من النساء مما سنأتي عليه بعد، وإنما لم أبدأ بذكر تلك الأسباب لأنني قصدت إلزامه من أول الأمر بضرورة تعدد الزوجات في بعض الأوقات أخذا بما عليه الناس في أحوالهم الدنيوية، التي لا يسعه إنكار شيء منها، فلما أضعفت من قوة تعصبه، وقللت من حدته، أخذت أسرد له الأسباب التي لم يجد شيء منها سبيلا.

والخلاصة أن اعتبار كون تعدد الزوجات مصدرا لكثير من المفاسد، إنما هو أمر إضافي، ولا يمكن اتخاذه حكما عاما، فإن ذلك يختلف

باختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة والأحوال. انظر إلى ما كان معروفا في بدء النصرانية من استقباح الزواج وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية.

ولقد قضت الرهبانية في الأعصر الخالية أن يقبر في الديور كثير من العقول الذكية، التي لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة، أما منشأ ذلك فقد كان إما تقليدا للمسيح عليه السلام، أو لبعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق إلى عبادة الحق تعالى، ولا يزال قسوس الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب، ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله إلى الشهوات الحيوانية، قالوا: إن المسيح عليه السلام روح الله، فكان أقدر الناس على غلبة شهواته، قارنوا بينه وبين مُحَمَّد ﷺ القائل: «لا رهبانية في الإسلام» ثم انتهى بهم القياس إلى الحط من كرامة الأخير، وقالوا: شتان بين من غلب نفسه، وبين من استرسل مع هواها فأرضاها، ولا يخفى بطلان هذه القضية فإنه لا تنافي بين الصلاح والزواج. على أن تقليد المسيح في رهبانية لا يبلغ غايته، إلا بخراب البيوت وتلاشي الأمم وانقراض النوع الإنساني، ولا يخفى أن هذا ينافي مقتضيات العمران، ومطالب نظام الأكوان.

لم يكن مُحَمَّد ﷺ فيما أتاه بدعا من الرسل، فإن موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرًا من النساء، وهما الرسولان اللذان لا يسع نصرانيا ولا يهوديا إنكار نبوتهما، أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الأولى.

زوجات النبي

هذا ونذكر لك في زوجات المصطفى ﷺ ما فيه غناء إن شاء الله تعالى، فنقول: اعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص، ما لم يكن لغيره من أمته، وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشروطه، ولا يخفى أن مثل هذا لا يكفي لإقناع غير المسلمين، الذين نددوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولم يجدوا في كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم، اللهم إلا قليلا ممن أيده الله بروحٍ منه، فتزيد أن نذكر لك من أسباب ذلك ما فيه مقنع إن شاء الله.

فاعلم أن أول أزواج النبي ﷺ خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة.

قضى النبي ﷺ شبيبته، وطائفة من كهولته، ولا زوج له إلا خديجة، ماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات، بعد أن مكثت مع النبي ﷺ خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع أولاده، ما عدا إبراهيم، فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء، وهو في ريعان شبابه، وقد كانت العرب، على ما علمت، يكثرون من الزوجات حتى أن منهم من كان تحته العشرون في وقت واحد، فلو كان هناك سلطان للهوى، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم، لاتخذ من الزوجات من شاء، وهو في مقتبل شبابه، واستكمال قواه الطبيعية، لا شرع يحول بينه وبين بغيته، ولا عادة تمنعه مراعاتها، من

قضاء مآربه، ولاسيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر من مكارم أخلاقه، وجميل خصاله.

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر، تزوج النبي ﷺ سودة، وكانت أيما مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكانت قد أسلمت رضي عنها وخالفت بني عمها وأقاربها، فما أجمل ما عمله النبي من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت. فقد مات عنها زوجها ولا حامي لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنوفهم، فكان تزوج النبي بها حماية لها أن تصل إليها يد الأذى، كما كان أكبر سلوان لها على فقد زوجها.

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة، ففقد النبي بموته رجلا كان يناضل عنه، ويدفع عنه أعداءه ما استطاع، فأخذ الأمر إذ ذاك يشتد على النبي ﷺ، فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش، فعقد على عائشة. وهي إذ ذاك بنت سبع، فإن أباها الصديق رضي الله عنه كان صدرا وجيها في قريش، واسع المال، عزيز الجانب، يدلك على ذلك مسارعة النبي ﷺ بالعقد عليها، مع أنها قاصر وأنه لم يبن بها إلا بعد ذلك بنحو سنتين، فلم تكن وقت ذاك مطمعا لقضاء شيء من المآرب الشهوية، حتى يطمح إليها نظر النبي أو غيره.

ومن هذا القبيل تزوجه ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت ببلاد الحبشة في الهجرة الثانية. مات عنها زوجها هناك، وما هو إلا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشي أنه قد كتب إليه رسول الله ﷺ ليزوجه إياها.

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبي وبين بني أمية من العداء، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألد بني أمية عداوة لرسول الله والمسلمين، فإنه لم يدخل في الإسلام إلا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد، فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمه نسب، تكون له في الجملة وسيلة إلى حملهم على تقليل الأذى عنه، كما أنه ﷺ اختارها لنفسه، لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها، ففي عدم حمايتها ووقايتها، وقد مات زوجها، تعريض لها إلى مقاساة المصاعب والأهوال، وإنما اختارها النبي لنفسه لمكانتها في قومها، فلو أنها زوجت بغير كفء لاتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم، ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم.

وكانت الأسرى من النساء يتخذن إماءً لا يسوي بينهن وبين الحرائر في شيء، كما أنهن قلما أعتقن، فأراد النبي أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغي أن يصنعوا بما في أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة، وأن يجعلن سيدات البيوت، فمن ذلك تزوجه بجويرية. قالت عائشة ﵂: أصاب رسول الله ﷺ سبى بني المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفارس سهمين والرجل سهما، فوقعت جويرية بنت الحرث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس، فجاءت إلى الرسول فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحرث سيد قومه، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، وقد كاتبني ثابت على تسع أواق فأعني على فكاكي، فقال: أو خير من ذلك، فقالت: ما هو؟ فقال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك، فقالت: نعم يا رسول الله فقال: قد فعلت، وخرج الخبر إلى الناس، فقالوا:

أصهار رسول الله يسترقون، فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبى بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام إياها، فانظر إلى ما قصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها.

ومن ذلك أيضًا تزوجه بصفية بنت حيي، وكانت من أشراف بيوت اليهود، ثم صارت سبيا بعد وقعة خيبر وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم.

وعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: لما دخلت صفية على النبي ﷺ قال لها: لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله، فقالت يا رسول الله: إن الله يقول في كتابه {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [الأنعام:١٦٤]، فقال لها رسول الله: «اختاري فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك». فقالت: «يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها ولد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إلي من العتق، وأن أرجع إلى قومي، قال فأمسكها رسول الله لنفسه، وقد رضيته بعلا، مع أنه كان لها أن ترجع إلى أهلها بعد العتق.

هذا واعلم أن أمر الثأر في الجاهلية معروف، وقد حاول كثير من الأنبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء، ونسخ تلك العادة القبيحة، فلم يفلحوا، لما أن ذلك كان أمرا راسخا في نفوس العرب أشربته

قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء، حتى أتى النبي فجعل من عقود أنكحته ما ربط كثيراً من القبائل بعضها إلى بعض، فبدأ قرب ما بينها، وأزال كثيرا من أحقادها، وأطفأ سورة ما في صدورها من الغل الضغائن، حتى قلت في أيامه ﷺ الغارات، وكاد يتناسى أمر الثارات.

زواج النبي بامرأة زيد

هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد أن نذكر كلمة في تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب امرأة مولاه زيد:

قال الشيخ محمد عبده[1] أن زينب كانت بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر، حتى أنه اختارها لمولاه زوجة إبائها وإباء أخيها، وعد هذا عصيانا، ولازال كذلك حتى نزل في شأنها آية: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب:٣٦].

ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدته، وقد كان يراها لم يكن بينه وبينها حجاب، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة، فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية؟ لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة

---

(1) انظر تفسير سورة الفاتحة.

القريب وولعه بالقريب إلى أن تبلغ حد العشق خصوصا إذا كان عشيرة منذ صغره بل المألوف زهادة الأقرباء في بعض متى تعاشروا، فكيف نظن أو نتوهم أن النبي الذي يقول الله له: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [طه:١٣١]، يخالف مألوف العادة، ثم يخالف أمر الله في ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟

«إن النبي لم يبال بإباء زينب ورغبتها من زيد، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة، وتفسد به شؤون المعيشة، فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل، وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين، لولا أن النبي يجد من نفسه أن هذا القرآن مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهي، ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت، واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب، فكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الأحكام التي يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب، فأراد الله محو ذلك بالإسلام، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} [الأحزاب:٤]، ثم قال: {ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ} [الأحزاب:٥]، فبين الله أن ليس للمتبني إلا حق المولى والأخ في الدين.

«وكان من عادة المصطفى ﷺ أن يبادر في كثير من شرائعه إلى إقامتها بنفسه، ليكون قدوة حسنة، ومثلا صالحا تحاكيه النفوس، وتحتذيه الهمم، وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة، وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب، إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه، لتسقط العادة بالفعل، كما ألغى حكمها بالقول الفصل، فبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلن إباؤها الأول، ولم يسلس قيادها، بل شمخت بأنفها، وذهبت تؤذي زوجها، وتفخر عليه بنسبها، وبأنها أكرم منه عرقا، وأصرح منه حرية، لأنه لم يجر عليها رق، كما جرى عليه. فشكا ذلك إلى النبي غير مرة وهو يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» إلا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها، ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة، كما قال تعالى: {لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)} [الأحزاب: ٣٧]، وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ} [الأحزاب: ٤٠]، وقد قال العرب إذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه.

قال أبو بكر بن العربي: فأما قولهم أن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه فباطل، فإنه كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن ثمة حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله، فكيف يتجدد هوى لم يكن.... » أ.هـ ملخصا.

وهكذا كانت سنة النبي ﷺ في جميع زيجاته فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السنوات التي أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وقد كان فتيا لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة، ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله، لولا أن جعله الله من الصابرين، هذا كله على فرض أن أنكحه النبي ﷺ كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية ﷺ كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [النساء:٣]، أما إذا كانت قبل ذلك كما حققه الأمير علي في كتابه «سر الإسلام» فلا حاجة إلى التماس شيء من تلك الأسباب، قال الأمير علي: إن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبي ﷺ، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد، ثم إن الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبي أن يتزوج على من عنده، كما فرض عليه ألا يتبدل بهن أزواجا أخريات فقال: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ} [الأحزاب:٥٢] أي إلا من سبق لك التزوج بهن.

وهنا مسألة أولع بإيرادها كثير من أحداث هذا الزمان، قالوا: لم جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الأزواج؟

فاعلم أن ذلك يفضي بداهة إلى اختلاط الأنساب، فيقع اللبس في نسبة النسل، ولا يخفى أن ذلك يفضي إلى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية، كالنفقة والإرث وغيرهما.

وهنا مسألة أخرى وهي أنه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابيه بخلاف العكس؟ وجوابها أن الإسلام جعل لكل كتابي أن يبقى على دينه، فالكتابية في يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس، فإن المسلمة في يد الكتابي لا تأمن أن تفتتن في دينها، فإنه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره، ولاسيما من له عليه سلطان كزوجته، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية في العصر الحاضر يرى جليا وجه ما قلناه، ومن هنا يعلم أن المرأة لم تبخس شيئًا مما منحه الرجل.

الطلاق

مما عد وصمة في الإسلام إباحة الطلاق، ولذا ينبغي لنا أن نأتي ببيان ما سيكشف لك إن شاء الله وجه الصواب فيه، فنقول:

اعلم أن الطلاق إباحة للمسلمين لأنه قد تدعو إليه الضرورة، أما حيث لا ضرورة فسماه النبي ﷺ: أبغض الحلال إلى الله، كما أن المسلمين اتفقوا على النهي عنه عند استقامة الزوجين، فمنهم من قال أنه نهي كراهة، ومنهم من قال نهي تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب، ويؤيد ذلك أنه أضرار، وقد نهى النبي ﷺ عنه في قوله: «لا ضرر ولا ضرار» ولقد كره النبي ﷺ أن يطلق زيد زوجته زينب، مع أنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا، أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد، ولكن اختلفوا في بيان الأسباب، قال ابن عابدين: وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أي الحرمة، والإباحة للحاجة إلى الخلاص، فإذا

كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص، بل يكون حمقا وسفاهة رأي ومجرد كفران للنعمة وإيقاع الإيذاء بها وبأهلها وأولادها، ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر، ولذا قال تعالى: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا} [النساء: ٣٤]، أي لا تطلبوا الفراق أ.هـ.

أما غير المسلمين، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا إلا للزنا، كالأمة الإنكليزية، فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الأمر إلى المحكمة ليفصل القاضي بينهما، أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة، ثم وجدوا أن هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق، ولكن لا فرقة عندهم إلا بقضاء قاض، ولابد لجميعهم أن يراجعوا إلى ما قرره الإسلام من الأسباب.

نعم إن الشريعة الإسلامية لم تقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم، وقصار النظر من الناس يرون أن الأول أعدل، لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد، ولكن دين الإسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وأبعد مرمى، فلم يفعل ذلك إلا لحكمة صالحة، ذلك أن في تطبيق الطلاق على حكم القاضي بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبة القلوب، وتشوه سمعته في العالم، ولاسيما في مثل هذا العصر الذي تطوف جرائده في الشوارع

والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع، وتنقل من أرض إلى أخرى ومن يد إلى غيرها، مشحونة بتفاصيل ما يعرض في المحاكم من هذه القضايا، آتية على ما قل منها وما جل. فمن ذا الذي يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب؟ يقضي ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقى من العصر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا، أما الإسلام فإنه جعل للقاضي فسخ الأنكحة في أمور لا بأس في إعلانها، بل إن إعلانها هو المصلحة الكبرى من ذلك: الغنة والجنون والبرص والجذام والإعسار بالنفقة والكسوة والمسكن، مما تراه مبسوطا في كتب الفقه متى رجعت إليها، أما غير هذه الأسباب مما قد يزول أو لا كبير خطر في بقائه، فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه. فما أجمل ستار الشرع الذي يخفي كثيرًا من النقائص، رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد، وما أرأفه بالإنسان الذي قد يهفو ثم يبدو له فينيب.

هذا.. واعلم أن الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا، وغاية ما ورد في الإنجيل أن من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان، وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا.

واعلم أن الطلاق في الإسلام، كما هو معلوم، حق من حقوق الزوج {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء:٣٤]، ولكن الإسلام مع ذلك قد جعل للمرأة، كما تقدم، أن تشترط في العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية، فإذا لم تشترط

ذلك هي أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذي خوله له الشرع، ولكن مع ذلك لا يجوز له أن يوقعه إلا حيث يراه الشرع حسنا صالحا.

هذا ولم يعتبر الإسلام زنا الرجل من الأسباب التي تطلب بها المرأة فسخ الزواج، ولا العكس، إلا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها، ولا بينة له، فإن له أن يلاعن زوجته وتلاعنه، ثم يفرق القاضي بينهما، والسبب في أن هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا من حيث ما يستتبعه من الأحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الأولاد، ولذا كان رمي المرأة الرجل بالزنا لا يصلح عليه للفرقة بل إن لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه.

فمما تقدم لنا هنا نرى أن الإسلام لم يجر في جميع ما سردناه عليك هنا إلا على مقتضى أصل الفطرة، فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق، ثم لم يبخسهن شيئًا، كما أباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرونا بما وضعه وقرره من الشروط، – ولكن لو اتصف الناس لاستراح القاضي– حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم، فكانوا أكثرهم إباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون.

كان الطلاق قبل الإسلام منتشرًا في جميع أمم العرب يهوديًا ومسيحيا ووثنيها، وكذا بين الرومانيين، فلقد اعتبر قانون «الموائد الاثنتي عشرة» الطلاق جائزًا. أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم لم

يعملوا بهذا القانون إلا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم «روما» فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم للطلاق، ولكن لأن الرجل في تلك القرون كان له أن يقتل امرأته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر، فكانت عند الرجل كالرقيق، كما أنها إذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزًا يخول له عقوبتها، نعم إن الرومانيين في أخريات أمرهم أصلحوا كثيرًا من شأن المرأة وأنصفوها إذ ساووا بينها وبين الرجال في كثير من الأشياء.

يقول الأمير علي: إن المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق إلا بحكم القاضي الشرعي العادل، فلا بد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز، فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا. ومن هنا يظهر أن من طوائف الإسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضي، فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج إلا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريد من الفرقة

تعدد الطلاق

واعلم أن من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الأولى والثانية، لأنه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر، فرجا الشرع أن يرجع إليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى إذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأي ضعيف العزم، ولا يخفى ما في هذا الشرط من السر الحكيم، وإذا أردت زيادة بيان

فتدبر قوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء:٣٥]، أيقول الله إن يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم أن يريدا إصلاحا يوفق الله بنيهما؟

وتفهم قوله تعالى: {خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم:٢١] فقال لتسكنوا إليها ولم يقل لتطلقوها، وقال وجعل بينكم مودة ورحمة، ولم يقل بغضا وقسوة، وقوله تعالى: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ} [الأحزاب:٣٧] أمر النبي عليه السلام زيدا بأن يمسك زوجته فلا يطلقها، مع أنها كما تقدم كانت تكثر من مضارته وإساءته، وقال تعالى: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا} [النساء:٣٤] أي فلا تطلقوهن، ومن هنا استنتج أن الأصل في الطلاق التحريم، إلا لسبب كما تقدم لنا.

خاتمة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده، مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام:

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} [النجم:٣٩]، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة،

ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا لنفسه أو لمن يدخل في ولايته، أو ما تعدى ضرره إلى غيره، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها، إلا حقا محترما تصطدم به، أنحى الإسلام على التقليد وحمل عليه حمله لم يردها عنه القدر، فبدت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلمة نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم «نم فإن الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة».

علا صوت الإسلام على وساوس الطعام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث هادون.

صرح في وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا مما علموا أحسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولاسيما لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام: ١١]، وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب.

عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم {بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [لقمان: ٢١]، {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٢]

أثر القرآن في تحرير الفكر البشري

حرية الفكر قبل الإسلام

لعل من المستحسن- قبل أن أتكلم في أثر القرآن الكريم في حركة الفكر البشري وتحريره – أن ألم بنبذة تاريخية فيما كانت عليه الأمم الكبرى في طائفة من القرون التي سبقت ظهور الإسلام من التطورات، وما تعاقب على العقول فيها من المد والجزر، والتحرير والاستعباد، فإن في ذلك ما يعيننا على إدراك مدى ما فعل القرآن في إنصاف العقل الإنساني وإخلاله المقام الذي خوله خالقه منذ فطره وأوجده.

كان أساس القانون العام السياسي في الإمبراطورية الرومانية إباحة علنية الأديان وجميع العقائد والأفكار ومازال الأمر هنالك كذلك حتى دخلت بأوربة الديانة المسيحية التي ابتدأ بها عهد الحجر والحظر على ما سيأتي تفصيله.

لقد كان من أهم الدعاة إلى تحرير الأفكار من قيود الخرافات والتقاليد، والقصص المزعجة التي كان يستعملها بعض شعراء اليونان، ورجال الأديان فيهم: «هرقليتوس» و«ديمقراط»، ولقد تناول هذان بالبحث – بعد المادة الطبيعية – أحوال النفس البشرية والشئون السياسية، وكان هدفهما ورائدهما في جهودهما العنيفة امتحان كل شيء بالعقل والفكر. وكذلك ظهر «انكساجوراس» فجعل يعلم الناس أن

الشمس التي يصلون لها صباح مساء إنما هي كتلة من النار ملتهبة لا إله يعبد.

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة في سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المعروفين بالصوفية أو السفسطائية، الذين أخذوا يظهرون في القرن الخامس للميلاد، والذين وضعوا في النصف الثاني من هذا القرن قواعد وأصولا للحياة الاجتماعية من ناحيتي «الأخلاق والسياسة» وبحثوا في الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا، ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الأقلية المطلقة التي هي طبقة المفكرين والعلماء، أما الدهماء والعامة فكانوا في كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة، على أنه لا ينبغي أن نغفل ما كان لأثينا في ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمناقشة في الشئون السياسية وبخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة «بريكل» الذي كان يحمي أرباب التفكير الحر، حتى لقد كان حصنا للفيلسوف الجاحد لآلهة أثينا «انكساجوراس» من المحاكمة.

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع إلى الخروج على الأديان كان أوانه لا ينجو من العقوبة، وأن ما كان ينشر من الكتب في ذلك كان يجمع ويحرق أو يحرم بيعه علنا، ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التي كانت تقام في أوجه المنطقيين "Rationalists" اللادينيين كادت في أواخر ذلك القرن تختفي، وذلك لوفرة عدد هؤلاء واطراد نموهم وتكاثرهم، ولقد كان من القضايا المسلمة لدى الإغريق، ثم

الرومان حتى في أرقى عصورهم علما ومدنية ومادية أن الدين نافع وضروري لعامة الشعوب مطلقا، ولذلك كان يقول بفائدتها، كركن للسياسة العامة، حتى من لا يدينون بها، كما أن فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر أية عقيدة أو نظرية، من شأنها إحداث اضطراب ما في الحياة الاجتماعية. ومن الأفراد البارزين في هذا الميدان من الإغريق سقراط، الذي يعتبر بحق أجل أولئك المربين، فكان مما امتاز به وتفرد شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد، واجتذاب كل من يحادثونه ومن يستمعون إليه، إلى طريق استعراض العقائد المعروفة المألوفة، وامتحانها بمحك الفكر، مع إفساح صدر العقل لكل بحث واحتمال، دون تقيد بشيء من التقاليد، ولا وقوف عند رغبات الجماهير، وإنما سلك سقراط هذا الطريق في نشره للعلم، واقتياده شباب زمانه إلى وجوه الحقيقة، ومناهج التفكير الصحيح، لأن بلاد اليونان منذ حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوي، كانت ميدان حركة فكرية، ابتدعها أفراد من اليونان، كانوا في أول هذه الحركة، إما مسترزقين أو طلاب شهرة وسمعة، ثم أخذوا يسرفون في أساليبهم الجدلية وطرائقهم التشكيكية، غير مبالين ما يصيب العقول من التضليل، ولا حاسبين حسابا لوخيم عواقبها ومنكر نتائجها.

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود، حتى التبس الأمر على العقول وخفيت عن بصائرها معالم العلم الصحيح وحدود، ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميدانا من ميادين المعرفة حتى أعملوا في أساسها وأركانها معاول التشكيك لا لعلم يبلغونه ولا لصواب ينشدونه ولكن ضلالا

وتضليلا، وجهلا وتجهيلا، فلما جاء سقراط، بما أوتي من العقل الراجح والرأي السديد والعلم الصحيح، لم يجد بدا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويسلك في هدايتهم تلك السبل التي سلكها أولئك في تشكيكهم وتضليلهم، ولو أنه انتهج في تعليمهم وإرشادهم غير هذه المناهج التي فتنوا وأغرموا بها لما استطاع أن يجتذبهم إلى طريقه، أو يبلغ بهم شيئًا من مقاصده، وإلى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان.

ومع كون أثينا في ذلك العصر كانت أشهر البلاد في الديمقراطية وأكثرها تسامحا وحرية، نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التي كانت تنال المتصدين للدعوة إلى حرية الفكر والاحتكام إلى العقل.

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية، وبالجدل والتشكيك، والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس إذ ذاك من التقاليد والأفكار، ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المعادي لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى إلى محاربة الفلاسفة (وفي مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل، ولاسيما الروايات التي وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم، وتصوير سقراط زنديقا غير تقي وداعيا مضرا، حتى لقد ثارت عليه الأمة اليونانية آخر الأمر، فاعتبرته ملحدا ومفسدا لعقائد الشباب وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل الميلاد، لهذه الأسباب، كما يدل عليه محاكمته، وما قدمه في الدفاع عن نفسه وقد

علمنا من التاريخ أنه قدم لدرء ما اتهم به من إفساده لعقائد الشباب هذين الدفعين.

(١) يجب على كل فرد مهما تكن النتيجة أن يقاوم كل ما يراد عليه مما يراه ظلما، سواء أصدر عن شخص صاحب نفوذ أم عن محكمة.

(٢) أن لا ينزل مطلقا عن القول بأن في المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة، وضمانا للعلم الصحيح.

بعد ذلك بسبعين عاما، اضطر أرسطو أن يفارق أثينا أيضا، حذر أن يساق إلى ذلك المصير، لاعتباره فيها ملحدا أيضا.

ولقد جاءنا أفلاطون، أنجب تلاميذ سقراط، في آخر أيامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء، فإنه يرينا في (المدينة المثالية) أنه لا بد لأهل المدينة من قبول الدين الذي رسمه هو وصوره، وأن من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن، وأن حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذي وضعه. إلخ. على أن تعاليم سقراط في محادثاته ظلت ينبوعا غزير المادة، ترعرعت به عدة مذاهب في الفلسفة، وصدر عن مرتواه جملة من الفلاسفة المعدودين، كأفلاطون وأرسطو وأستويقس وأمثالهم، ممن انبثت مذاهبهم في أطراف بلاد الإغريق منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد، وفتحوا لهذه البلاد مصاريع أبواب الحياة العقلية، وأنعشوا في أهليها حركة التفكير والتدبر.

ولقد سبقت لنا إلمامة بما ترك أفلاطون وأرسطو من الأثر في تحرير عقول الأثينيين، ولكن من المفيد أيضا أن نورد هذا أن أبيقور – على رغم جحوده قيام السلطان الإلهي في هذا الوجود للتدبير والتعريف ونبو بصره عن كل موجود سوى المادة والماديات – قد تخطى بالعقول الخاملة في إقدامه المدهش السريع عقبات استعصى تخطيها على الأجيال والقرون، ولقد وجد أحد الشعراء من الرومانيين في فلسفته وحيا وإلهاما مستطابا أودعه قصيدته المسماة (في طبيعة الدنيا).

ولم تكن فلسفة أستويقس في تحرير العقل الإنساني بأقل حظًا من المذاهب المذكورة آنفا، بل الحقيقة أنها جاءت منظمة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتماعية التي لم يأت سقراط على بيان شيء منها أيام كان يقرر أن القوانين قد تكون غير عادلة وأن الناس يجرمون، ولقد كان لفلسفة أستويقس أثرها في الشرائع الرومانية، فإن أساس القانون المدني في الإمبراطورية الرومانية، كان، كما قدمنا سابقا، إباحة علنية لجميع الأديان بسائر الأفكار.

قدمنا أن حرية الدين، وحرية الجهر بالفكر، لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية في أوروبا، فضربت هنالك حولها نطاق الحجر والحظر، لما كانت عليه التقاليد الوثنية.

ابتدأ بها الحجر لأن الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية التي تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية، والتي ما كانت تتمثل لأبصارهم سهلة سمحة.

ولشدة نفور الرومانيين منها، وبغضهم لها، واعتقادهم ابتعادها عن روح التسامح، أصدر تراجان قانون حكم القتل على ما يدين بالنصرانية، وقد أحاطه بقيود لم تيسر السبيل إلى الإسراف في القتل، ولكن الإمبراطور بيوكلتيان أراد تأييد دين الحكومة، وتثبيت قدم الحرية التي ألغوها قديما، فكان ما قرره من تنظيم المذابح في المسيحيين بكل فظاعة وقسوة، وفي الحق أن الذي دفع ذلك الإمبراطور إلى هذه الجرائم، أن المسيحية كانت تقبح ما اعتيد من عبادة الرومانيين أباطرتهم، على حين أن ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة، توحيدا لكلمتهم، وتعلقا خالصا بعروشهم التي تمثل الإمبراطورية جميعها، ولكن بدخول قسطنطين الكبير في النصرانية دارت الدائرة على العقل، فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق. وبعد أن كان رجال المسيحية في القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الديني واجب، أن العقائد ليست مما يلزم به الإنسان جبرا، فتنوا بدخول قسطنطين في النصرانية، وانقلب الأمر رأسا على عقب، فكان الحكام والملوك لأسباب سياسية غالبا، كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلافات المذهبية، يوقدون نيران الفتن، ويقيمون المذابح المروعة هنا وهناك، حتى سلب من الدنيا الأمن والسلام، وفقدت الأنفس الراحة والطمأنينة. ولقد كان من تعاليمهم أن النجاة لا تكون إلا بقبول المسيحية، وأن من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا، ولا

عذاب الآخرة، مهما بلغت من الفضائل، ومهما يقدم من الخيرات والحسنات، وأنه إذا مات الطفل قبل التعميد فإنه في الآخرة يمشي على بطنه إلى أرض جهنم أبد الآبدين.

ومن أقداس رجالهم (سانت أوغسطين) الذي مات سنة ٤٣٠ ميلادية، فإنه نظام اضطهاد من لا يقبل النصرانية، واستمر ذلك من بعده متبعا إلى القرن الثاني عشر، وكلما حدثت بين النصارى بدعة أو عقيدة تقلل من دخل الكنيسة، اشتد القسوس على أصحابها وغلوا في إيذائهم والتنكيل بهم.

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث «كونت تولوز»، أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية، فلما لم يطع أمره أقام عليه حربا صليبية كادت تفني قومه، وفيها صودرت أملاك ذلك الكونت، وكسرت شوكته، ولم يصالحه البابا إلا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه.

كذلك أقيم نظام التفتيش في المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية، وتم تنظيمه لعهد أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وأدخل في سائر المدن والممالك النصرانية، وعين لذلك المفتشون من القساوسة، ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شيء يفعلونه، وساعدهم على ذلك ما وضعه الأباطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة.

ومع كون فريدريك الثاني الكبير كان حر الفكر، أصدر أمرا يقضي بأن كل من ينكر أو يبتدع شيئًا في النصرانية يعتبر خارجًا، ويحرق منهم من لم يتب، ويحبس من تاب، ومن ارتد قتل، وتصادر أملاك الجميع وتدمر بيوتهم، وكذلك أطفالهم لا يستحقون الرحمة، لا هم ولا أنسالهم، إلا إذا أخبروا عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانوا آباءهم. وقد جعل فريدريك (الخازوق) عقوبة الإلحاد والابتداع، وطبق ذلك الأمر في إيطاليا وألمانيا خلال ١٥ عاما (١٢٢٠-١٢٣٥م) ثم عمم نظام التفتيش في غرب أوروبا. ولعهد هنري الرابع والخامس عوقب الإلحاد بالخازوق في إنكلترا بقانون أصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣، ثم أعيد لعهد الملكة ماري، ونسخ نهائيا عام ١٦٧٦م.

واستمر تطبيق هذه القوانين على المسلمين واليهود، بأفظع الطرق الوحشية، ولم تنسخ إلا في القرن التاسع عشر، وكانت خلال ذلك تطبق بوحشية على من حملتهم على الردة من البيوتات الإسلامية واليهودية. وبالجملة فقد كانت القاعدة التي بني عليها نظام التفتيش «خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد واحد» وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة، ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه، ولا كان لمحكمة أن تقبل في حال ما شاهد نفي.

وكما فعل بمخالفي العقيدة النصرانية، كذلك فعل بطوائف السحرة، فمن ذلك أن البابا «أنوسنت الثامن» نشر في سنة ١٨٨٤ بلاغا يؤكد فيه

أن الطاعون والعواصف من عمل السحرة، فتتبعوهم في كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع، وبخاصة في إنجلترا واسكتلندا.

وفي أواخر القرن الثاني عشر جاء للعقول قبس من دنيا أخرى ليفك عنها أغلالها وسلاسلها، إذ أخذت فلسفة أرسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها في غرب أوروبا، ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير في تحرير عقول أهل أوروبا، كما نالهم كثير من مناهضة البابوات لتعاليمهم، فإننا نجد البابا يوحنا الحادي عشر، يقبح تعاليم ابن رشد، ويحكم بضرر وجودها ونشرها، كما أن القس توماس قسيس أكوينو بجنوب إيطاليا سنة ١٢٧٤، قام فأسس للكنيسة فلسفة إزاء فلسفة أرسطو العرب، وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية، والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار، بل أنها في أغلب المواطن كانت تتركها كريشة في مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من القلق.

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية، والنهضة العلمية، دخلتا أوروبا فيما حول القرن الثاني عشر الميلادي من طريقين: أحدهما الاحتكاك الذي ظل نحو قرنين مستمرا بين أمم أوروبا والشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية، والآخر طريق المعاهد العلمية التي أقامها العرب في الأندلس ونابولي وجزيرة صقلية. والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بدئ بهم تاريخ النهضة العلمية في أوروبا – كروجر بيكون وأمثاله – كانوا من الواقفين على اللغة العربية ومباحثهم في كل فن، وإذا انتحل هؤلاء أو عزى إليهم بعض الابتكارات، فإنما سبب ذلك ما تعمدوه غالبا من إغفال

المصادر التي أخذوا عنها، حتى لقد رجح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الإنجليزي الذي يعزو إليه الفرنجية ابتكار العدسات والنظارات، إنما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم، صاحب المباحث العظيمة في الطبيعيات، ولاسيما الضوء والبصريات. فمجاورة أهل أوروبا لأهل القرآن الذي حرر العقول، وأقام صروح العلوم، وزين الدنيا بجميل الفنون، هي التي فتقت بصائرهم، وكشفت عن حديد أبصارهم أغشية الجهالة، التي حجبتهم عن أنوار الهداية دهورا طويلة، ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الإنساني موقوف أهل القرآن من كل وجه، لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذي اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الإسلامية، ولكن كان لسلطان رجال الدين في تلك العصور، واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها، ما قاوم تقدمها وأضعف تأثيرهما، فلقد وجهوا الفلسفة المتوغلة فيهم إلى المناحي الدينية، وقصروها على المباحث الكنسية، وبذلك صرفوها عن وجوهها الأصلية، وقصدوا بها إلى غير الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٢٩م، قاضيا بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات، وألا تفسر التوراة والأناجيل إلا بما تقرره الكنيسة، قد أغضب كثيرا من الأمم النصرانية، وبرغم أن هذا القرار في الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروتستنتي، فإن لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث أن قرر أن للحكومة حق إجبار الشعب على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة، وأن لها استئصال الملحدين المنكرين لها.

بذلك الكيد المبيد للعقل الإنساني والغدر الأثيم به، لم تقر الحركة الفكرية على المضي في سبيل حريتها، والظهور على ما كان يبيت لها رجال

الدين من الحروب الشعواء، حتى كانت أواخر القرن السادس عشر، حينما ظهر فرنسيز بيكون الفيلسوف الإنجليزي بحملاته العنيفة، على الفلسفة الدينية، مصدعا بمعاوله صروحها الشامخة الرهيبة، داعيا الناس إلى تحرير العقول، ومعالجة المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التي وضعها، واقتاد الباحثين إليها، فبدأ بذلك عهد التجديد العلمي، والتحرير العقلي، الذي لا تزال المشارق والمغارب حتى اليوم تنعم بشهي ثماره الدانية القطوف.

عهد التحرير العقلي

يبتدئ تاريخ العهد الجديد بأوروبا، كما هو معلوم، عام ١٥٤٣م، ذلك حينما نشر كتاب كوبرنيقوس الذي يثبت به دورة الأرض حول الشمس، ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه إثبات أقمار المريخ، وإثبات دورة الأرض حول نفسها، مستدلا على ذلك بالبقع المظلمة التي رآها في جسم الشمس، فماذا قابلته الكنيسة؟ لقد قرر المجمع المقدس في فبراير سنة ١٦١٦ أن مذهب كوبرنيقوس سخيف، وبمقارنته بما جاء في الوصية (وصية المسيح) بعد هرطقة. ولقد حرمت رومة تعليم نظام المجموعة الشمسية إلى ما بعد ما منتصب القرن الثامن عشر، وقد أربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية في إيطاليا، وكذلك أقام البابا ألكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠، كيلا تنشر ما لا ترضاه البابوية من الأفكار الحرة، ولو كانت حقائق علمية ثابتة، وفي فرنسا كان الملك هنري الثاني يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئًا بدون ترخيص، والحقيقة أن الطبع لم يصر حرا في أية قطعة من أوربة إلا في القرن التاسع عشر، وهو العصر

الذي ضعفت فيه سيطرة الكنيسة، وقويت شوكة الملوك والأمراء المدنية، وسادت النظم والقوانين الدستورية، ولما تأسست الجمهورية الديمقراطية في فرنسا (١٧٩٢م) أعيد وأيد القانون القاضي بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية، ولكن وجدت بجانب ذلك حركة شديدة ضد الكنائس، إذ أمرت حكومة باريس بإغلاق سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء، مستعملة في ذلك القوة القاهرة والصرامة الماضية، ولكن حينما جاء روبسبيير على رأس الحكومة قرر أن يكون دين الحكومة عبادة العلي الكبير (أبريل سنة ١٧٩٥)، وبعد قليل أحدث دين وضعي جديد، يسمى دين الفطرة، وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين شعرائه، مثل فولتير. وقواعده هي القول بالله، وخلود النفس، والأخوة الإنسانية (الرحمة) وألا تهاجم هذه الديانة غيرها من الأديان والمذاهب، ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله (theophilanthropy)، ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين رأسا لعقب، وأظهر البابوية ثانية في الميدان، ولم يكن يقصد من ذلك إلا الانتفاع بالسلطة الروحانية، والاستفادة منها في حروبه المستقبلية، وتوسيع إمبراطوريته في عالم الكثلكة.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين، لما كان يذاع إذ ذاك من أن في التوراة والأناجيل من التضارب والتنافر ما لا تقوى العقول على قبوله، فتفشى بذلك إنكار الوحي، وسادت المناقشات العلمية هنا وهناك، وفي القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة، فاجتثت كثيرًا من أصولها، وإن يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم بعض الشيء، فمنهم من أنكرها بتاتا

واعتبرها غير معقولة وسخيفة، ومنهم من لم يصل إلى هذا الحد الغشوم. فباسكال الفرنسي كان من المؤمنين بها، وبيكون الإنجليزي كان من يعلن اللاهوتية وأن يكن مضمرًا الإلحاد. وهناك ديكارت كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة.

ولقد تقتفي في بعض الآونة أثر تغلب العقل على الكنيسة في معاملة السحرة، فإننا بعد أن رأينا كيف كان جيمس الأول، عملا بآية الإنجيل «لا تبقوا على حياة السحرة» (Thou shalt not suffer them live)، يطارد هؤلاء بكل صرامة وغلظة، نشهد في أواخر أحداث عام ١٧١٢ كيف اعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالي هرتفورد شير مجرمة تستحق عقوبة القتل، فرفض القاضي قولهم وبرأها غير متأثر بتعاليم الكنيسة، ولا متقيد بالتقاليد السائدة إذ ذاك. ولقد نسخ هذا القانون نسخا سنة ١٧٣٥، ولكن في سنة ١٧٥٢ حكمت محاكم اسكتلندا بإحراق امرأة ساحرة.

ومن المذاهب الجديرة بالذكر، ما أحدثه في هولندا فيلسوف يهودي اسمه (سبينوزا) وأعلنه إلى الناس عندما حل عقال الفكر، وألقى حبله على غاربه، وعقيدته أن هناك إلها ليس قائمًا بذاته، وأنه ليس للإنسان إرادة حرة، وأن القول بالعلة الأولى أو علة العلل خرافة، وبعبارة أخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجودة، أو وحدة الوجود، ولا بد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزا إلى صاحب الفكر الحر، فكانت عبارة مقت وتكفير إلا فيما ورد منها في

بعض الكتب الدقيقة، ولكن الحقيقة أن الذين سموا إذ ذاك بذلك الاسم لم يكونوا إلا إلهيين، بيد أنهم ينكرون الوحي فقط.

ومن معاصريه (لوك) ومغزى كتابه الذي وضعه سنة ١٦٩٠ أن العلم جميعه ليس إلا نتيجة التجارب، وقد أخضع الاعتقاد في جميع أحواله للحكم العقلي، وقرر رفض ما يخالف الحكم العقلي، لأن الوحي لا يعطي علما صحيحا كالذي يعطيه النظر العقلي، وقد وضع كتابا في موافقة النصرانية للعقل. ولقد حذا هذا الحذو معاصره «بابل» الذي وضع بعد نفيه من فرنسا إلى هولندا كتابه «القاموس الفلسفي» (Phylosophiocal dictionary)، ومن كلامه أن فضيلة الاعتقاد تنحصر في الإيمان بقدرة الله وسلطاته وحده، ويقول أنه يستحيل أن يتصور الإلهيون تطبيق صفات الأرثوذكس على الإله الذي ثبت بالعقل وجوده، ولما قبل فريق من الأرثوذكس تحكيم العقل ضلوا، وسقط منهم كثير في هاوية الإلحاد. وقد تطابق الإلهيون و(سبينوزا) في القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب.

ولقد ظلت أفكار الإلهيين خفية مكتومة إلى سنة ١٦٨٥م، حين أبطلت قوانين المطبوعات، فابتدأت إذ ذاك تظهر بعض الظهور، برغم ما كان أمامها من العقبات الإدارية الأخرى وهي:

(١) أنه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن في المسيحية، أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها، أو يأتي بإلحاد، أو سب للمسيح.

(٢) ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضي القضاة هيل في قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أي عمل أو قول أو رأي يخالف تعاليم الكنيسة، يعتبر مخالفا للقانون العام، إذ النصرانية ركن من أركان القانون العام الإنجليزي.

(٣) صدر قانون عام ١٦٩٨ يقضي بأن كل ثابت في النصرانية لا يجوز له أن يعلن مخالفته لأصول الكنيسة وتعاليمها، ومن يفعل ذلك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة في الوظائف العمومية، وفي الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة مع حبسه ثلاث سنوات.

ولقد تولى فولتير، وروسو، في القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر. وللأخير يعزى كتاب «أميل» الذي أحرق علنا في باريس وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه فما وسعه غير صدر فردريك ملك بروسيا، ولكن رجال الدين هناك مازالوا يضيقون الأرض عليه حتى اضطروه إلى مفارقة بروسيا. ولقد كان لروسو أعظم تأثير في الحياة الاجتماعية، بعد الذي نشر من نظرياته الاشتراكية في كتابه «العقد الاجتماعي» (Social contract) الذي أحرق علنا في جنيف.

وفي سنة ١٧٧٠ فوجئ القراء الفرنسيون بالدهشة يوم ظهر كتاب البارون دي هولباخ «نظام الطبيعة (System of nature) الذي أنكر فيه وجود الله وخلود الروح، وقد انتشرت في القرن الثامن عشر حركة الإلحاد وحرية الفكر ورغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم.

على أن ذلك استمر إلى ما بعد هذا القرن، فقد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩، وسجن ثلاث سنوات عندما نشر كتابه (عصر العقل Age of reason) ثم قدمت امرأته وبنته وكثير من بائعي الكتب للمحاكمة بسبب ذلك الكتاب.

وفي أواسط القرن الثامن عشر، ابتدأت حركة الحرية الفكرية، بعد إذ كانت العقول هنالك مكبلة مغلولة، وبعد أن رأينا كيف نفى أبو فردريك ملك بروسيا الفيلسوف وولف، لمجرد أنه مدح ديانة كونفشيوس الصينية، وما كان لأحد في رأيه أن يمدح دينا غير النصرانية. وبعد ذلك جاء ابنه على أثره بالتسامح الذي جعل أرضه موئلا ومعاذا لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الأخرى. ثم جاء شكسبير وغوتة بما قدما لعالم الأدب، فخطوا بالعالم في حرية الفكر خطواتهما الواسعة. وقد زلزل الثقلين (كانت الفيلسوف) إذ بين في كتابه (نقد العقل الصحيح Critic of pure reason) بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه الكائنات، وبطلان الأدلة التي أقيمت على خلود الروح، وادعى أن لا مصدر للعلم سوى التجارب، وإن يكن في آخر الأمر وضع كتابا آخر روحه إلهية، وذلك حرصا منه على الأخلاق في الشعب التي هي ميزان الحياة الاجتماعية، والتي لا سبيل إلى إصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى أن تصبغ بصبغة روحانية، وتسند إلى مصادر سماوية.

مما تقدم يفهم أن العلوم العصرية في البلاد الغربية ترجع إلى القرن السادس عشر، الذي شهد ثبوت نظرية كوبرنيقوس، وشهد القوة المركزية

الجاذبة، ونظام الدورة الدموية، والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة، كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها، ولكن هذه المكتشفات ظلت إلى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة، التي وردت في كتب العهدين إلا بدرجة محدودة، بيد أنها مع ذلك قادت الأفكار إلى البحث في الروايات التاريخية، التي جاءت بها، كطوفان نوح وسفر التكوين، فلقد جاء لابلاس في أوائله كما قدمنا، فقرر أن أبحاثه تفضي إلى رفض نظرية وجود الخالق، ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا، وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض في الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان.

وفي عام ١٨٦٣ أوضح الأستاذ ليبل الفرنسي (Lyell) في كتابه (قدم الإنسان) أن الإنسان سكن الأرض قبل العصر الذي عينته التوراة بأزمان مترامية في القدم، ولكنه رأى إمكان الجمع بينهما باعتبار اليوم الذي جاء في التوراة طويلا جدا، لا كأيامنا المألوفة، واعترض عليه بأن هذا لا يمكن تطبيقه على الأيام التي خلق فيها الإنسان، فإن التوراة تفيد أنها كانت كأيامنا.

وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زعزع أركان الأناجيل، ولكنها تركت بابا للقول بوجود النوع البشري «قبل التاريخ» وما زالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان، مبينا أصل الإنسان، فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء، وسائر النواميس الطبيعية، وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون أصل الأجناس (Origin of species) عام ١٨٩٥.

وازدادت الثورة الفكرية، وتأججت نيران الجدل عندما ظهر في عام ١٨٧١ كتاب دارون منشأ الإنسان (The decent of man) بين الدينيين وغير الدينيين، حتى لقد يؤثر على غلادستون في تلك الآونة قوله: «إذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الإله باعتباره خالقا قد انتهت، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية، وأنها قارة خالدة على حالة واحدة لأصبحت حكومة الرب في العالم مما لا حاجة إليه». وإذا أردنا أن نعرف مركز العقل، ومدى حرية الفكر في البلاد الغربية، غير الإسلامية، حتى في أواسط القرن الأخير، فحسبي كيف صور المؤرخون بلاغا إذاعة أحد الكرادلة من الإنجليز إذ يقولون:

«في سنة ١٨٦٤ أدهش الكاردينالماننج الإنجليز عالم النصرانية ببلاغ يقول فيه: أن لكل إنسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحا، وأنه ليس للكنيسة حق الإكراه على العقائد، وأن علم ما وراء الطبيعة يمكن بل يجب ألا يتقيد بالوحي، ولا برغائب الكنيسة، وأن للكاثوليكيين حق دعوة من يشاءون من مهاجري الملل الأخرى، وأن لهؤلاء أن يقيموا صلواتهم جهرة، وأنه يجب على البابا أن يقيم في سلام مع الرقي العلمي والحرية والمدنية».

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الأحداث الكبرى التي أدهشت عالم النصرانية، مع أنه عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم الإسلامي، وألفه منذ أشرق نور القرآن على القلوب، وتجلت تعاليمه

الفطرية على العالم الإنساني، تفرض التفكير، وتقبح التقليد، وترفع الحجر عن العقول.

مما أسلفنا نجد ما كان بين الفكر البشري، وبين ملل الغرب، من الجدل العنيف، والصراع الدائم في العصور العديدة، حتى كاد ينتهي النصر في العاقبة للعقل، ويكتب الغلبة لحرية الفكر.

وإنما قلنا (كاد) لأننا لا نزال نرى في بعض ممالك أوروبا، وفي أمريكا الجديدة، أقواما لا ينفكون ينصرون القديم، ويفضلون الجمود على ما كان عليه الأولون، ولو عارض المشهودات العينية، وناقض الحجج المنطقية. وهل نسى أحد منا كيف عاملت في العام الفارط إحدى جامعات أمريكا كبيرا من أساتذها، لترويجه مذهب دارون، يوم قامت من حوله ضجة وعجة، لم يخفت لها صوت، حتى انتهت بفصله عن كرسيه في تلك الجامعة.

الحرية في الشرق الأقصى

حسبنا تلك النبذة الموجزة لتصوير ما كان عليه العقل البشري في الغرب، من الأزمات التي احتمل ما لا يوصف من آلامها وشرورها دهورا طوالا في سبيل حريته واستقلاله. والآن ألم إلمامة خفيفة بما كان عليه العقل في الشرق الأقصى في ذلك الوقت الذي انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الإغريق، أي فيما حول القرن الخامس قبل الميلاد فأقول: بينما قام في الشرق الأدنى أكسينوفانيس فهاجم آلهة اليونان ممطرا إياها وابلا من التهكم والسخرية، داعيا الناس إلى ترك عباداها والزراية بسخافاها، وبينما

كان هيركليتوسوديموقريتوس يعالجان العقول البشرية لتحريرها من أسر التقليد الجاهلي، واجتذابها إلى حظيرة التفكير في ملكوت السموات والأرض، نجد في الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية، تنبه الهمم الخامدة وتقتاد الشعوب الضالة الجاهلة، في سبيل التفكير والبحث عنا فيه صلاح حياتهم الاجتماعية: ففي الهند يظهر بوذا بتعاليمه، وفي الصين يحارب كونفشيوس ما كان في قومه وحكام عصره من التفاوت في الطبقات، والنزوع إلى الفوضى السياسية والاجتماعية، ويهذب ما كان يرى في أمراء زمنه من القسوة والغلظة والجور واستعباد الناس.

ومما يلاحظ هنا أن الشرقيين، وإن اتحدا أو تقاربا في زمن نهوضهما ذلك، فقد تشابها في كنه تلك النهضة وطبيعتها، إلا أنها كانت في الهند أشد عناية بتهذيب النفس، وتطهيرها من أدران الأخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشئون العامة المادية، كما أن النهضة الكونفوشيوسية في الصين كان هدفها وضع النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية.

كما جاء رجال الدين في الشرق الأدنى والبلاد الغربية بما بسطنا سالفا من البدع والمظالم والمغارم والطقوس العبادية، والعقائد التي أرهقت العباد، وأزهقت الأرواح، واستعادت استبعاد العقول، وجعلت القرون الوسطى ثم القرون وأشقاها، كذلك فعل زملاؤهم في الصين والهند وما حولهما مثل ما فعلوا، فكان من حكمة العليم الحكيم، ورحمة الرفيق الرحيم، أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين في ظلمات الضلالة،

الهائمين في أودية الجهالة، ليفك أغلال عقولهم، ويرفع منزلة نفوسهم، ويكلهم إلى وحيه المنقذ لا إلى تجاربهم العاثرة، وأن يقيهم مصارع المجالدات والمصادمات التي فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والعدل من أصحاب الملل والنحل الأخرى.

القرآن والحرية

شاء جلت حكمته ذلك فكتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة، ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة، وينجي من معاثر الجهالة العقول الضالة، وسيتبين مما أقصه كيف سار القرآن الكريم بالعقل البشري في سبيل الحرية، وأين حل بالعقل من المنازل العلية. بيد أنه يجمل أن ننتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من أنه إذا كان دين القرآن هو دين الفطرة، وإذا كان مقياس صحة الأحكام في نظر القرآن هو العقل والمنطق، فماذا عسى أن تكون فائدة الدين؟ ولماذا لا يترك العقل البشري يجاهد وحدة في سبيل الحق والحقائق، حتى يبلغهما، وينقب عن الخير والشر والنافع والضار، حتى يفقه كنهها، ويدرك حدودها، ويعلم ما بينها من الفوارق والمميزات؟

إلى أمثال هؤلاء نقول أن من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب إلى ما تصبو إلى ما تصبو إليه النفس الإنسانية، من مراتب الكمال في الأحكام، والتصورات والنظم الاجتماعية، والمسائل العلمية والآداب الخلقية، ولكن في سبيل ذلك

عقبتين لا بد من تسنمهما حتى تتحقق مثل تلك الأمنية: إحداهما عادية والأخرى طبيعية.

فأما الأولى فهي ضرورة انسلاخ عدة من القرون في التجارب والأبحاث التي يقتضيها الوصول إلى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة. وأما الثانية فهي ناموس النشوء والارتقاء، أو التطور التدرجي الذي بالاعتماد عليه وحده في عالم المعقولات والمعنويات، لا يمكن أن يصل العقل البشري إلى مرحلة، حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل.

على أن ثمة عوامل أخرى تكتنف سير العقل في أحكامه وأبحاثه، وكثيرا ما تقوم منها العواثير التي قلما ينجو معها من السقوط والزلل، وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية، والاضطرابات العصبية، التي لا يجهل أحد منا آثارها في شعب الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية. ومن المغالطة أن نبرئ أنفسنا أو ندعي بلوغ الكمال في شيء من أفكارنا وأحكامنا وعواطفنا، ما دمنا نجمع بين جنوبنا نفوسنا جامحة، إلى قلوب متقلبة، إلى شهوات مطاعة، إلى هوى متبع.

فالدين فيما أراد منزلة جل شأنه ضروري لأصحاب تلك الأهواء المتقلبة والنفوس الجامحة.

لذلك، وللسلوك بالناس أقصر طريق وأقومه وأسلمه، يرسل الخالق صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمة بعباده أن تزل أقدامهم، وتضل

أحلامهم، وتفننهم أهواؤهم، وتضيع مئات السنين أو آلافها في البحث عما تصبو إليه نفوسهم من العلم والحرية والمساواة والعدل، وسائر الفضائل والكمالات.

جاء القرآن بدين الفطرة في كل شيء، فطابقت قواعد أحكامه وأصول آدابه وشرائعه، مقتضيات الفطرة البشرية، حتى لقد كان من أمهات أصوله فيما هو خاضع لتأثير المؤثرات، وعرضة لتعاقب التطورات، أن يكون العرف في كل أمة مقياس تقديرها، ومن هنا كان لا بد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الأزمنة والأمكنة والعرف الخاص في الشعوب والأقوام المختلفة، وبذلك طابق القرآن مطالب العقل، غير متنكر لما فطرت عليه طبيعته، ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره في الحياة الاجتماعية بجميع شعبها.

عرف القرآن أن الإنسان مفطور، منذ بدأ إحساسه وشعوره، على البحث عن علل ما تدركه حواسه من الأحداث والكائنات، فزاد تلك الغزيرة تنشيطا وإنعاشا، وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات، المحصورين مضايق التقليد، فلا يكاد يخلو له مقام من دعوة إلى تدبر وتفكير، ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم أو برهان يحاكمه به إليه.

لم يكن من منافرات العقل أن يأتي القرآن فيدعو الناس إلى الإيمان بالرسل والأنبياء، والأخذ بما كلفوا بتبليغه من الأحكام والشرائع والآداب

والفضائل، فإن ذلك للمتدبر من مقتضيات العقل وطبيعته. فمن ذلك أن العقل مفطور على الشعور بالحاجة إلى ما يدفع عادية الأفراد والجماعات بعضهم على بعض {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ٢٥١]، كذلك هو مسوق بغريزته إلى أن يضع أو يقبل كل ما يرى فيه ضمانا لنظام الحياة الاجتماعية في العالم الإنساني، وبما أن عقل الإنسان معرض للإفلاس والزلل في معالجة الشعب التشريعية والأدبية والعلمية، على ما بسطناه في محاضرة أخرى، كان بطبيعة الحال ميالا إلى الطمأنينة، والسكون إلى من يثق به، وإلى قبول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب، ويقيه مخاطر المغامرات التي تستلزمها الظنون والتجارب، شاخصا إلى وحي ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطباع، العليم بما فيه صلاح شأنه وإسعاد حياته، وإن حرص الإنسان بفطرته على التماس أقصى الطرق المؤدية إلى ما ينشده من الرغائب والكمالات ليدفعه إلى طلب القدرة التي تسكن إليها نفسه، وتقبل ما يصدر عنها من الأقوال الحكيمة، والنصائح القويمة، وهذا هو سر اندفاعه العامة، وأكثر الخاصة، إلى الاعتقاد في أفراد من الناس يرجون أن يبلغوا بهم منازل الكمال، ويعيشوا بهديهم في سعادة وسلام من الأنبياء والرسل، وممن على قدمهم من الدعاة. وإنما طبع الإنسان على ذلك لأنه يكره أن يتدرج في تعرف الفضائل وطلابها، تدرجا قد لا يدرك في غضونه صواب أمره أو لا يضمن سلامة سبيله، فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من شتى الأعمال والتصرفات والأحكام يميل بفطرته إلى الإصاخة والاستماع إلى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن يجد فيما يدعونه

إليه ضالته المنشودة التي يصبو إليها، وقلما عرف لها سبيلا إذا ترك هو وشأنه.

فالإنسان بفطرته السليمة وعقله الحر، مدفوع إلى الطمأنينة، والاعتقاد فيمن يسلك به سبل السلامة، من الخطأ والخطل والزلل، حذر أن يفوت عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو إليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات المطالب، وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس والجمعيات التهذيبية ورجال المذاهب الصوفية وانكب الناس عليها من جميع الطبقات في سائر الأزمان.

القرآن يخاطب العقل

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرع بها، فهو إذا تحاكم فإلى العقل، وإذا حاج فيحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطلي العقل وإذا رضي فعن أولي العقل.

جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل، والماديون والدهريون، فما قارعهم إلا بالبرهان، ولا دعاهم إلا إلى البحث والنظر.. من ذلك آية {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩]، وكم من آية {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة:١٧٠].

ومن الآيات التي هزمت أشياع التقليد، المعطلين لعقولهم في كل زمان ومكان شر الهزيمة، قوله تعالى في الآيات {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء:٣٦]، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣)} [سورة يونس: ٤٣]، ولا تكاد تمر بك آية في المجادلات إلا وهي مختومة بمثل {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل:٧٥]، {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل:٦٢]، {هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل:٦٤]، {أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت:٦١]، {لَوْ تَشْعُرُونَ} [الشعراء:١١٣]، {أَفَلَا تَسْمَعُونَ} [القصص:٧١]، {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر:٩]، وهلم جرا.

وقف القرآن الكريم في جميع مقاماته، لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذي جاء به، فإذا دعا إلى عقيدة، أو ركن من أركان الدين، تجافى عن الإلزامات التي لا تحيط بها العقول ولا تدركها الأفهام. وكلما هم بتلقين أصل من أصوله، بدأ بالمقدمات النظرية، ثم ينتهي بالتحذير من جحودها عنادا وكفرا وذلك كما يقول في آية {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال:٤٢]{ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ}[سورة النساء: ١٦٥].

ولم يكن منزل القرآن جلت حكمته، وهو خالق الإنسان ومالك القلوب والأسماع والأبصار، لم يكن في شيء مما أوحى من آياته إلا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التي منها العدل والحق والخبير، فهو

الذي لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين، ولكن مبشرين ومنذرين {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)} [الغاشية: ٢١-٢٢]، {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل:٣٥]، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس:٩٩]، {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} [الكهف:٥٦]، {مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق:٤٥].

إن أول ما بدأ به القرآن في التحاكم إلى العقل الإيمان بوجود الله، فإن القرآن، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين، كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال، حتى إن منهم من لم يقبل الإيمان التقليدي بالله وإن أفتى الغزالي وأمثاله بقبول الإيمان التقليدي من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر إما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه، فاكتفوا من هؤلاء بالإيمان الثابت رحمة بهم، ووقوفا معهم عند مدى موسوعاتهم، وإن كان تقليديا لم يقم على شيء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظري.

فأما دعوة القرآن الكريم الناس إلى البحث والنظر والتحاكم معهم إلى التفكير والعقل، فإنهما لا تكاد تخلو منهما سورة من السور، واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هذا المقام، فلنجتزئ هنا باقتباس شيء من هذا فيما يلي الآيات:

١- {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد: ٣-٦].

٢- {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤]

٣- {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)} [سورة الغاشية: ١٧-٢٠].

٤- {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: ٢١].

٥- {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣].

٦- {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [الأعراف:١٨٥].

ولا يتسع هذا المقام لاستقصاء ما جاء من ذلك في القرآن الكريم، فلنكتف بما اقتبسناه هنا، منتقلين إلى البحث في مسألة تخبط فيها كثير من الباحثين. تلك هي: ما مصير من لم يقصر في النظر والبحث، ولكنه مع ذلك لم يستطع الوصول إلى العقيدة الحقة في الدين؟

للعلماء في هذا المقام آراء مبسوطة في الكتب المختصة بها، ولا يعنيني هنا إلا أن أعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه، فأستفتيها في حكم ذلك الفريق من الناس، إلا أنني قبل ذلك أسترعي ذهن القارئ إلى المسلمات الأولية التالية:

(١) أنه ليس في استطاعة العقل البشري، إذا قام عنده الدليل الصحيح على حكم، أن يرتاب فيه.

(٢) أنه ليس في مقدور العقل البشري أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معا.

(٣) إذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب على سواه.

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية، وجاء كتابه السماوي مصدقا لها، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها، ولكنهم إن اختلفوا بعض

الشيء فيما عن لهم من الآراء، تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول إلى حكم العقل من الشرعيات، ما ظاهره يخالف العقل.

وهل هذا إلا وقوف عند حدود المسلمات العقلية، ونزول على حكم الفطرة البشرية، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والإرغام؟ أم هل كان لدين الفطرة، دين البحث والنظر، أن يكلف بالعقيدة من قصرت عقولهم عن إدراكها، أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين، الذي قوض دعائم الإيمان بغير المعقولات، وأقام على أنقاضها عقيدة الإيمان اليقيني المتحصل من طريق العقل والنظر.

إن الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم، أو أن يلزمهم بما لم يهدهم إلى حجته وبرهانه، يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [سورة النساء: ١٦٥].

إذن فلنعد الآن إلى سرد أي القرآن الكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلي:

١-{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [هود:٢٨].

٢- {نحن نعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}

٣- {قَدْ بَيَّنَّا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)} [سورة البقرة: ١١٨-١١٩]

٤- {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشورى:٤٨]

٥- {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ} [النازعات:٤٥]

وخلاصة القول أن القرآن، الذي هو كتاب دين الفطرة، ما كان ليأتي بما ينافي الآراء القويمة، أو تغم حكمته على العقول السليمة، ولم يكن ليكلف العقل الإيمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به، أو أن يفترض على الإنسان ما ليس من موسوعات فطرته، إذا فوظيفته في البشر ورسم أقرب الطرق إلى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلكة التي يغشاها طلاب الحق والحقيقة، لا من طريق الوحي بل من طرائق التجارب، ومصارعة شياطين الإنس من الحكام الجائرين، وعصابات رجال الدين المضللين، ولنا على ذلك ما نشاء من الأدلة والشواهد، لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الأمم الغربية إزاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية، أو أبيحت حرية التفكير والنشر، وتقررت بينهم حقوق الإنسان، سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء، وأزهق في سبيلها من الأرواح، سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها، وما أصاب الأمم من شرورها ونكباتها

موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات

لست هنا في مقام المتعرض للبحث في أمر وجوب المعجزات وخوارق العادات إثباتا أو نفيا، ولا أنا في مقام المعرف بكنهها المحصي لأنواعها وأقسامها، فإن شيئًا من ذلك ليس مما نقصد إليه هنا، ولكن الغرض الذي نرمي إليه بحثنا الحاضر هو موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات والخوارق. ذلك لنعلم هل يرى فيها القرآن ما رأته الأديان الأخرى من اعتبارها أسسا للعقائد الدينية، وآيات قاطعة تكفي أن يعتمد عليها الرسل والأنبياء في إفحام المتحدين لهم من الأمم التي يرسلونها إليها؟ أم هل يرى في طبيعتها وقوة حجتها – مع دعوته إلى التعقل وحضه على النظر والتدبر – ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج؟

فلا يلتبسن الأمر على القراء ولا يغيبن عن أفكارهم هذا المقصد.

امتاز الإسلام من بين الأديان، كما أسلفنا غير مرة، بأنه دين الفطرة والعقل، كما امتاز رسوله من بين الرسل بأنه الرسل الفطري الذي أرسل بالحق والهدى بشيرا ونذيرا، فميزان صحة هذا الشرع المنيف، وقسطاسه المستقيم، وهو أن جميع ما جاء به من الأحكام والمراسم، وضروب المواعظ والإرشاد، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح، ولا تأباه النفوس السليمة، إذن فما كان له أن يتأيد بما ليس من حدوده، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته.

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين، دين العلم والحكمة، دين البيان والبرهان، ولكن الأقوام الذين أنزل فيهم كانوا أهل جهالة وعناد، وعباد أهواء وشهوات، جهلوا سر الإسلام وروحه، فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الأولون من طلاب المعجزات والخوارق. ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجما عن ترو وصدق رأي، ولكنهم كانوا يقترحونها إما عبثا أو عنادا، أو التزاما لما أرضعتهم الجاهلية الأولى من الضلالات والأباطيل، وفقدان العلم {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آَيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)} [البقرة: ١١٨-١٢٠].

ظل النبي عليه الصلاة والسلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم إلى العمل بمقتضيات الفطرة، ويرشدهم إلى كنه وظيفته النبوية، وما هي سوى الهداية إلى السبيل القويم وإرشاد الناس قاطبة إلى ما فيه الخير والسلامة في معاشهم ومعادهم {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام: ٥٠].

رأى القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الأولون بعد إذ ألحوا في طلابها، وأجيبوا إليها، فرأتها أبصارهم رأي العين، ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من إثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع إلى نفوسهم الشك فيها بعد الإصرار على طلابها واللجاج في استنزالها، فمنهم من يراها من أنواع السحر، ومنهم من يكذب بها بغيا وعدوانا {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: ١٠٩-١١٣].

ولو أن جهل أولئك الأقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدي، لما أصروا على طلاب ما قد طلبه أسلافهم ملحفين، ثم تولوا عنه بعد إذا جاءهم مدبرين مكذبين، ولكن كان ذلك منهم جهل عناد وإعنات، ولهذا لم تفدهم هدايات القرآن الكريم، ولم تزدهر بيناته إلا عتوا واستكبارا {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} [سورة الإسراء: ٩٠-٩٥]. {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام:٧].

يقص علينا القرآن في غير موضع أنه طالما كذب المشركون وأهل الكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمعنوا في إعناته وإيذائه، ولجوا في زعمهم أنه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها. كما يقص علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله، ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها.

ولكن علمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها، واستنكرتها أنفسهم بغيا وعلو، ولهذا يبين لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي تنافر فطرته، ولا يقوي معاند على معارضتها، تلك هي القرآن الكريم نفسه {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت:٥١].

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد أن الرسول عليه السلام ما سئل معجزة من المعجزات ألا تلطف بطلابها وأرشدهم فيها إلى الأخذ بأسباب العلم والهدى وسماهم تارة بالجاهلين، وأخرى بالذين لا يعلمون، ولا ترى في القرآن جميعه أن الرسول عليه السلام جارى أولئك الحمقى في سبيل مطالبهم، وجاءهم بشيء من المعجزات التي سألوها، وقد جاء هذا صريحا

في قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء:٥٩]. قال ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية: يقول تعالى ذكره وما منعنا يا مُحَمَّد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك إلا أن من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا مثل سؤالهم، فلما أتاهم ما سألوا عنه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجيء الآيات فعوجلوا، فلم نرسل إلى قومك بالآيات لأنا لو أرسلنا بها إليهم فكذبوا بها سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم.

وما كان مبعث الإضراب عن إجابة مطالبهم وإلحافهم في سبيل المعجزات عجز الله تعالى قدرته عن تبديل شيء من ظواهره الكونية العادية. ولكن علم الله منهم ما علم من آبائهم الأولين، لجاج في الطلب، وجنوح عن التصديق، وجهل بمكانة دين الفطرة، وضلال عن ركنه المتين، وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم، {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آَيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأنعام:٣٧]. وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعادة على الرسالة أو النبوة قطعية إقناعية، لما أمعن المعاندون في تأويلها تارة وإنكارها أخرى، وما قوله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام:٧]، إلا لبيان هذه الحقيقة.. ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتى، فمنها ما يظهر على أيدي المصطفين الأخيار من أنبياء الله ورسله، ومنها ما يظهر

على أيدي غيرهم من السحرة والمشعوذة، ومنها ما يظهر على أيدي أرباب الرياضات الروحانية، حتى من المجوس والمشركين.

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس فيما يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التي يراد منها إقناع المدعوين إلى صحة الرسالة، وإثبات أن الرسل صادقون في دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه في تبليغ أحكامه وآدابه، ولا يكفي في التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التي تظهر على أيدي غير الأنبياء أنهم مبعوثون من قبل الله إلى خلائقه لتبليغهم أحكامه وعظاته، فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد إذ يطلبونها من أنبيائهم ورسلهم، فتارة يقولون هي سحر مبين، وأخرى ينكرونها معاندين.

فالإسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان الأخرى بأنه دين اليقين والنظر، لا دين خوارق العادات، وما وراء العقل من الآيات، ذلك قوله تعالى: (قد بيّنا الآيات لقوم يعقلون، إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلتهم أوهامهم ووساوسهم، وتعطلت في حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم، فسبحوا في لجج من الوهم، وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون أن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، وأن معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوي، وضمان ذلك لسعادة الإنسان في حياتيه الدنيا والأخرى.

ولقد بلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه حدا كان يكبر عليه فيه إعراضهم عن دعوته، وإصرارهم على مخالفته، والكفر بآياته حتى كأنما هو بلاء مسئول عنهم، وحامل لأوزارهم، فأنزل الله في تسليته وإراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمن بهم قوله: {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [البقرة:١١٩]، {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشورى:٤٨]، {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِير} [هود:١٢].

ولكم شق على المصطفى ﷺ انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات، فكانت نفسه الشريفة تطمح آونة في أن ينزل الله شيئًا من آياته مجاراة لأولئك الضالين المعاندين، ولكن الله الذي أدب رسوله وأكمل عقله أراه في آية {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام:٣٥]، أراه في هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجاراة الجاهلين وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الإنسان.

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام، بعد إذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صدره، بما كانوا يعرضون وأن يحزنه الذين يقولون، أو مصيرهم الذي يوعدون، فإنهم ما كانوا يكذبونه، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، فما عليه إذن من حسابهم من شيء، بعد إذ قام بما حمله من التبليغ المبين: {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} [يونس:٤٦]

وهنا مبحث يجب أن نعجل الإلمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون، ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه في الدين، وأن الرسول غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين، والتذكير بآيات الذكر الحكيم {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)} [سورة الغاشية: ٢١-٢٢]، وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم في قومه مقام الجبارين، فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد إعراضهم عن دينه بعد آية: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق:٤٥].

فالإسلام الذي هو دين الفطرة، ومجموع الكمالات القدسية، والآداب الإلهية، ليس بذلك الذي يتذرع إليه بالقسوة والغلظة، ويروج في العالم بالسيوف والنيران. ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون في نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، فمنها البرهان العقلي، والخطابة والشعر والتقليد، ولكل من هذه الأنواع تأثير في نفوس الناس، بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل، وإنما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التي ورثها بمحض التقليد والاقتداء، ولو كانت غير معقولة، ومنافرة للعقل السليم، وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث، وقولهم أن عيسى صلب

ليفتدي أتباعه بدمه وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبي البشر، وهكذا من العقائد غير البينة.

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية إلى عقيدته، على جهله، وعدم تحصيله وقصور عقله، وما هي سوى قول تلقفه ممن يثق به، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم.

ما كان للعقائد أن تتكون بالإرغام والقهر، ولا للإسلام الذي هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن إدراكه، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها.

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اكتفى منهم في حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية، إذا أبوا الإسلام، يدفعونها في سبيل حماية أراوحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم، فهم إذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق، وعليهم منها ما عليهم.

أهل الردة

أما أهل الردة الذين دانوا لله، والتزموا الإسلام، ثم ارتدوا عنه — إما إلى غيره من الأديان وإما لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شيء من أصوله، ويسمي الفقهاء جميع هؤلاء بالمرتدين ويفتون

فيهم بالقتل، أما بعد الاستتابة أو دونها على خلاف لهم في ذلك– أما هؤلاء فإن علينا أن نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول:

إن ذكر الردة جاءنا في موضعين من القرآن الكريم، ففي سورة البقرة جاءت آية {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢١٧].

وفي سورة المائدة جاء قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة: ٥٤].

وظاهر أن هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين، وكل ما دلت عليه آية البقرة – المذكورة آنفا – أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى، ومعنى الردة هنا – على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة – أن معناها الارتداد عن الدين، أي الكف عن الجهاد في سبيله، والارتداد عن منازلة الأعداء الذين كانوا لا يفتئون يقاتلون الرسول وأتباعه ليفتنوهم عن دينه ويرجعونهم كفارا بعد إذ آمنوا.

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا [سورة البقرة: ٢١٦-٢١٧].

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت في قوم من المسلمين كانوا يهمون بالكف عن القتال، ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم، وأن يبذلوا مهجهم وأرواحهم في نصرته وتأييده، بغضا للقتال، وضنا بالأرواح، وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء إخلادهم إلى العدو وإعراضهم عن صده سوى أن يستذلهم ذلك العدو ويستعبدهم، وأن الموت الذي يفرون منه لا ريب ملاقيهم، إلى ذلك يشير قوله تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١٦].

ولو أن أولئك النفر أدركوا بسهولة، ما وراء هاتين الكلمتين القدسيتين من الحكم البالغة، والمنافع العظيمة، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال في سبيل الله خلال الأشهر الحرم، ولكن وهنت قلوبهم، وتمكن حب الحياة من نفوسهم، وقصرت أبصارهم عن درك ما وراء ذلك من الذل الخالد والمسكنة الأبدية، واستهانوا بأمر الفتنة في الدين، فجنحوا إلى

تسليم، وإغماد السيوف، سائلين الرسول عليه الصلاة والسلام عن القتال خلال الشهر الحرام، كأنهم يريدون بذلك أن يجد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الأعداء، وحماية دين الله من الأذى والمكر السيئ.

ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح إلى النزول على حكم أعداء دينهم من المشركين وأهل الكتاب، جاء في استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك: {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢١٧].

ذلك حكم الله في المسلمين، إذا ما فتنوا عن دينهم، وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم، وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه، ويرغب عن بذل روحه في سبيل حماية دينه وملته {إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة:٨٥].

فالردة في هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الإسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين، ولكنها ردتهم عن نصرة الإسلام، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده، وحماية دماره، بينما أعداؤه لا يفتئون يناوئونه ويكيدون له، ولا يزالون يحاربون رسوله والقوامين عليه.

وهذه الآية وإن لم تنص على قتل أولئك المرتدين، فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفتاه أبو بكر وعمر من بعده، وكيف

نكلوا بهم إذا كفوا عن الدفاع عنه، ثم انقلبوا خوارج عليه، يحاربونه ويقتلون أهله تأييدا للمشركين من أقوامهم وتوهينا لبنيانه، بعد إذا ظهروا على عورات المسلمين، ووقفوا على مواطن الضعف فيهم، ذكر صاحب الكشاف أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الإسلام، ثلاث في زمن الرسول عليه السلام، وسبع في خلافة أبي بكر، وواحدة في عهد عمر، وقد كفى الله الإسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه ونقض أركانه.

ذلك قولنا في آية البقرة، أما آية المائدة فإن المتدبر للآيات السابقة لها في القرآن الكريم، يتبين أنها لا تكاد تخرج عن المعنى الذي نزلت فيه آية البقرة، ذلك أن قوما من منافقي المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم، فجعلوا يخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم أعداؤهم من أهل الكتاب، هنالك جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يدا عندهم، حتى إذا كان ما حسبوا وخشوا، سلموا من بطشهم وأذاهم، وفي هؤلاء نزلت الآيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ } [سورة المائدة: ٥١-٥٣].

اتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين، ليكونوا لهم شفعاء إذا وقع ما خشوا وحسبوا، وأسرعوا خفية إلى الاندماج في سلك أهل الكتاب لتوقعهم سرعة غلبهم وظفرهم بالنبي عليه الصلاة والسلام وأشياعه، فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده مظاهرته على أعداء دينه من اليهود والنصارى. ولولا أن الله تعالى أتى للمسلمين {بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة: ٥٤]. لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيئ الذي بيته أولئك المنافقون، ومن تخلفهم وارتدادهم، وتوليهم عمدا عن نصرة دين الإسلام ومناصرة أهله، ما قد كان يمحو آثار التوحيد، ويرفع منار الشرك في الأرض.

فالارتداد في آية المائدة –كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها – إنما أريد به تولي أولئك المرتدين عن نصرة الإسلام، والتخلف عن درء الأذى عن إخوانهم المسلمين، تاركيهم لغارات أعدائهم.

ومن الآيات التي جاءت في هذا الموضوع، واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [سورة النساء: ٨٨-٩١].

أي ما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق فئتين[٢] والله ردهم إلى أحكام أهل الشرك المحاربين في إباحة دمائهم.

نزلت هذه الآيات على رأي فيمن تخلفوا عن الحرب وقعة أحد، وانصرفوا إلى المدينة قائلين: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ} [آل عمران:١٦٧]، وهذا التأويل يلحق هؤلاء المتخلفين بالفارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية في كل زمان ومكان ودولة، دماءهم، على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما: من يصلون إلى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة وميثاق وعهد، ومن جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أي ضاقت عن الميل إلى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة أقوامهم، فلم يجعل الله بذلك سبيلا للمؤمنين على أنفس هؤلاء وأموالهم وذراريهم ونسائهم.

وقال آخرون: بل كان اختلاف المؤمنين في قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فخرجوا من

---

(٢) تفسير الطبري جزء ٥ صفحة ١١٢ إلى ١١٨ مع بعض تصرف

مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس. فأصحاب هذا التأويل على ما وصفنا يرون أن الآيات الكريمة نزلت في منافقين غير مسالمين ولكنهم خونة غدارون.

والقول السديد الذي ارتضاه الطبري في تفسيره، وهو الذي رآه، أنها نزلت في قوم من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد إسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم ويؤيده قوله تعالى: {فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا} [النساء:٨٩]، فإن الهجرة لم تكن فرضا على أهل المدينة ومع ذلك فهي مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين في قوله: {إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا} [النساء: ٩٠].

ومن هنا يتبين أنه لا علاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الإسلام لمجرد شبهة لم يستطع صاحبها ردها، وفكرة عجز عن دفعها. ذلك ما جاء في القرآن الكريم، فلننتقل إلى ما ورد في السنة في هذا الباب، فنقول: إن الأحاديث التي وردت في هذا الباب كثيرة، وجلها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين، وعلى بن أبي طالب، وابن عباس ﷺ، أما ما عزي إلى الرسول عليه السلام في ذلك وضح سنده، فقليل جدا، ومنه أن قد أمر النبي ﷺ بقتل المرتدين المحاربين.

روى في ذلك البخاري حديث النفر من عكل، إذ قدموا على الرسول عليه السلام، فأسلموا فاجتووا المدينة، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها ففعلوا، فصحوا ثم ارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل، فبعث في آثارهم، فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا.

وورد هذا الحديث لغير البخاري مع بعض تغيير زهيد.

ولا مراء في ذلك الحديث صحيح السند والمتن، ولكن ذلك النفر من عكل، فضلا عن ردتهم، كانوا من أولئك الخائنين المحاربين، الذين يسعون في الأرض فسادا، المنطبق عليه آية: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [المائدة:٣٣].

فلم يكن منشأ ما فعل الرسول (ص) لهم طروء شبهة لهم أوهنت فيهم عقيدة الإسلام، أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الأوثان، ولكن لما رأينا من ارتدادهم إلى محاربة المسلمين وإيذائهم، ومحاولة اللحاق بأقوامهم لمناصرتهم ومؤزارتهم، فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد في الأرض تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروي آنفا عن البخاري في شأنهم.

أما عن المحاربين من المرتدين، فللعلماء كلام طويل في جزائهم، فالجمهور من الفقهاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة، عملا بعموم حديث (من

بدل دينه فاقتلوه)، وخصه الحنفية بالذكور وتمسكوا بنهي الرسول عن قتل الإناث. وأما جميع ما ورد من الأحاديث في قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة، بل لقد قال ابن الطلاع في الأحكام أنه لم ينقل عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قتل مرتدة.

وجمهور الفقهاء، وإن قالوا بقتل المرتد، اختلفوا في أمر استتابته قبل القتل، فمنهم من أوجب أن يستتاب أولا فإن لم يتب قتل، وذهب الحسن وأهل الظاهر وكثير غيرهم إلى القتل في الحال، قال الشوكاني في نيل الأوطار، وعليه يدل تصرف البخاري، فإنه استظهر بالآيات التي لا ذكر فيها للاستتابة والتي فيها أن التوبة لا تنفع، وبعموم قوله: (من بدل دينه فاقتلوه)، ويرى النخعي أن المرتد يستتاب أبدا (أي فلا يقتل)

تلك أقوالهم في هذا الباب، ولهم تفصيلات كثيرة لا حاجة إلى استيعابها، والذي نراه في ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه ولكن لا حرج علينا فيما نرجو مادام عمدتنا في ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول عليه السلام.

وخلاصة رأينا في ذلك أن القرآن الكريم لم ينص في آية ما على قتل المرتدين عن دين الإسلام إلى دين آخر على النحو الذي شرحناه في تفسير آيتي الارتداد السابقتي الذكر، وأما الأحاديث التي سردها البخاري واستدل بها على وجوب قتل المرتد فورا، فليس شيء منها فيما نرى جاء نصا في القول بالقتل، ولا في بيان حدود الردة وكنهها والتعريف بها، ولقد

نستوفي الكلام فيها بعد بما لا غبار عليه، بيد أنه يجمل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع في هذا الباب.

أولا: أن القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذي يريده الفقهاء يقتل.

ثانيا: إن لبدء ظهور الإسلام من الأحكام ما ليس لغيره.

ذلك أن المرتدين عن الإسلام يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة إلى التوحيد كانوا يعودون إلى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية، وكانوا إذ ذاك يلحقون بأقوامهم ويحاربون المسلمين في صفوفهم أو يظهرونهم على عوراتهم، فارتداد من كانوا يرتدون إذ ذاك عن الإسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هذا الدين، ولكن كان دائما مشفوعا بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم.

والمستقرئ لأحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا، فمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده للمرتدين، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين، وإننا لنرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنا ويقتل من فوره، ولو لم يرتد عن دينه، فما بالنا لا ندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الإسلام الذين إن لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين، وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء، ودلوهم على مواطن الوهن فيهم. ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذي أنزل على

الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلهم يرجعون، فالمرتدون في صدر الإسلام كانوا في الغالب ممن دخلوا في الإسلام نفاقا، وخرجوا منه للفتنة وكشف الأسرار.

ثالثا: أن الردة التي جاءت في آيات البقرة وغيرها كانت ارتداد عن نصرة المسلمين والاشتراك معهم في محاربة أهل الكتاب، لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين، وظفرهم بهم يوما ما، فأرادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الأيادي ما يحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم.

رابعا: أن رسول الله ﷺ علمنا كيف نتصرف في الحوادث، ونقف عند حدود مقتضيات الأحوال. ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات، ولكننا ابتلينا بالجمود، وضعفنا عن إدراك أسرار سيرته ودينه الفطري، ووقفنا عند حدود الألفاظ، وأخذنا نتقيد ببعض الروايات، ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الإلهي ما يرشدنا إلى أيسر السبل وأقوامها لو كنا نعقل، ولنضرب لك أيها المتدبر المفكر في بعض الآيات والشواهد.

بدأ النبي ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام وهم على ما نعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين، فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالأقوام رويدا رويدا، كما كان يلين لهم من جانبه، ويتساهل في مطالبهم، تأليفا لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد، ومن ذلك ما روي عن نصر بن الليث عن رجل منهم، أنه أتى النبي ﷺ، فأسلم على أن يصلي صلاتين لا (خمسا) فقبل

منه، رواه الإمام أحمد، وفي لفظ آخر له على ألا يصلي إلا صلاة فقبل، وعن وهب قال: سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال: اشترطت على النبي أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون» رواه أبو داود.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «اسلم»، قال: «أجدني كارها» قال: «اسلم وإن كنت كارها» رواه أحمد. قال الشوكاني – بعد أن سرد هذه الأحاديث – فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه وأن شرط شرطا باطلا، وأنه يصح إسلام من كان كافرا.

فعل ذلك الرسول الكريم، لما يعلمه من أن من المنفرات تكليف المدعو جميع أحكام الله في آن واحد، وأنه لا حرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشرائط، ولو باطلة، فإن دخوله في الإسلام على أن وجهه جدير أن يوجد في نفسه من الميل للإسلام والعطف على إخوانه المسلمين ما يدفعه إلى بذل ما ضن به ونقض ما قدم في بيعته من الشرائط ينبئ بذلك قوله ﷺ في حديث جابر المذكور آنفا (سيتصدقون ويجاهدون).

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم، فراعى مقتضيات الأحوال، وأتى بما هو الأصلح للإسلام والمسلمين.

وناهيك بما فعله في صلح الحديبية، من قبوله شروط قريش الأربعة، ورضاه أن يرد إلى المشركين من يجيئه منهم مسلما، على ألا يردوا هم من فر إليهم من المسلمين، فعل ذلك رسول الله ﷺ لما فيه من الأسرار

والحكم البالغة، مما لم يفقهه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة إلا بعد أمد غير قصير.

لقد كان الإسلام يوم بدأ غريبا ضعيفا، فكان لا بد من اتخاذ كل من يمكن من ضروب التحوطات والشدة، حتى يشتد ويقوى، ويسلم مما كان يراد به من الفتنة والأذى. ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم، أن يقيم الرسول الكريم عليه السلام، في ذلك من الأحكام ما يضمن سلامة الإسلام، فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته، كان لا بد أن تكون هناك أحكام أخرى تناسب ما صار إليه المسلمون من القوة والمنعة، وما أصبح فيه الإسلام من السلامة والأمان، من ذلك ما رواه البخاري بسنده عن ابن عمر أن رجلا جاءه، فقال يا أبا عبد الله ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات:٩]. فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي! أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بآية {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا} [النساء:٩٣] قال فإن الله يقول: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [الأنفال:٣٩] قال عبد الله بن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، إذا كان الإسلام ضعيفا، وكان الرجل يفتن في دينه أما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة.

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة، ويفرق في الأحكام بين عهد الإسلام بالقلة والضعف، وما صار إليه لعهده من العزة والمنعة، ولعل ما

ذكرناه هنا هو سر قول الإمام النخعي بأن المرتد يستتاب أبدا ولا يقتل، ذلك أن الإسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين، بعد إذ أصبح في مأمن من أن تؤذيه مكايد المشركين، ومن يرتدون إليهم من منافقي المسلمين.

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) الذي رواه البخاري وغيره على نصه غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات غير مطردة، ما وسع النخعي ولا غيره مخالفته.

وإذ مهدنا أمامك السبيل، بتلك المقدمات التي أسلفنا، فاعلم أن الذي نراه، أن المرتد إما أن يرتد عن دينه، فلا ينضم إلى المدافعين عنه من المسلمين، ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن، كما كان يفعل أولئك الذي نزلت فيهم آيات القرآن والمائدة، فهذا لا جرم يقتل، وأصرح ما نزل في ذلك قوله تعالى: {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء: ٩١].

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون، كما سبق في حديث النفر من عكل، ولا ريب أن المرتد من أحد هذين القسمين منافق خائن أو محارب، فلا بد أن يقتل من فوره. وكذلك تفعل الممالك جميعها في الوقت الحاضر، مع أمثال هؤلاء من أفراد شعوبهم ورعاياهم.

الزنادقة

ويلحق بهذا النوع الزنادقة، الذين كانوا على عهد علي بن أبي طالب ﷺ، فقد روى من طريق عبد الله ابن شريك العامري عن أبيه، قوله لعلي: إن هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا! فقال: ويلكم إنما أنا عبد مثلكم، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام فقال: أدخلهم، فقالوا كذلك، فلما كان الثالث، قال: فإن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك فقال: يا قنبر أعني بفعلة معهم، فخذ لهم أخدودا بين باب المسجد والقبر، وقال احفروا وابعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها.

وكان يقال لهذه الطائفة سبيئة، نسبة إلى كبيرهم عبد الله بنت سبأ الذي أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة. وإنما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم لأنهم ظهروا والإسلام غض حديث العهد بالوجود كثير الأعداء والمحاربين.

فلو أن علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وختنه، وأصل العترة النبوية، أبقى عليهم، أو خفف العقوبة عنهم، لانمحت آيات التوحيد من

ظهر الأرض، ولما وجد في العالم أحد من المسلمين، ولكان للناس من علي بن أبي طالب، ما كان لليهود من عزيز.

أما أمثال هذه الفرق اليوم، وقد اشتد ساعد الإسلام، وقويت شوكته وتبينت للناس حقائقه وأصوله، فلا خوف عليهم منهم، ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم، اللهم إلا إذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل أو السجن أو التنكيل، فهناك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم أينما ثقفوهم.

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الإسلام، ولم يخرجوا عليه، ولم ينضموا إلى صفوف أعدائه، ولم يخونوه في شيء، ولكن أضلتهم بعض الشبهات، التي لم يستطيعوا لها ردا، والشكوك التي لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان، فإن سبيلهم فيما نرى ألا يعتبروا كالمرتدين، ماداموا لم يهتدوا إلى الصواب، ولم يقم من أهل الذكر والعلم من يبين لهم فيها الرشد من الغي.

والله سبحانه وتعالى أحكم واعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم، أو أن يلزمهم الإيمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه، يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء:١٦٥]، فإن الرسل قد بعثهم الله لخليقته وكلفهم البلاغ المبين، إذا فلا تكليف إلا حيث البلاغ المبين، فإذا ابتلى العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين من المسلمين، فكيف يؤاخذون إذا ضلت أحلامهم بعد إذ فقدوا

أركان الإسلام، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرءوا الشبهات، ويهدوا الهائمين في أودية الضلالات.

جموع المتصدين للفتوى

أقول ذلك بعد إذ رأيت من الشبان المسلمين، من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء، ويغشون مجالس أئمة الإسلام، لا لغرض سوى استفتائهم في بعض أصول الإسلام، والفرار إلى معاقل علمهم وهدايتهم، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والأوهام، حتى إذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة في ذلك، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم، ما كان يصد أولئك الحائرين عن مجالسهم، وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة، ودفعتهم معاملة الشيوخ إلى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم.

ونحن على ثقة من أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته، لما كثرت الملاحدة وفشت المنكرات، فكيف لنا – مع جمود هؤلاء المتصدين للفتيا والإرشاد – أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم، ممن لم يستوعبوا أصول الدين، ولم يهتدوا إلى صواب اليقين، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات.

إنه {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة:٢٨٦]، {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق:٧]، {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦]، أفلم يعتبر القرآن التفكر في ملكوت الله من كبريات

العبادات، يزدلف بها إلى الله؟ أو لم يقل رسوله ﷺ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» إلى نحو ذلك مما علم المسلمين، أن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الإنسان على معرفة حكم الله في خلائقه، وإدراك البدائع من صنعته، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس وأشباهها؟ أليس ذلك يخول المسلم، متى أحسن النية، أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم، وأعماله للفكر، عبادة الله تعالى وتعرفا إليه، بما يفهم من بدائع آثاره، وما يدرك من دقائق صنعته؟ إذن فالإنسان في نظر القرآن كلما ازداد علما وبحثا، ازداد عند الله تعالى اقترابا وحظا.

مقام القرآن الحكيم إزاء العلوم والمعارف الكونية

كثيرا ما نسمع من خطبائنا العصريين، ونقرأ في صحفنا ومجلاتنا الحديثة، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين في حرب قائمة دائمة، لا يستقر لها صلح ولا تتخللها مهادنة.

يلهج بذلك أشباه المحصلين، وتلاميذ آثار الغربيين، ممن يطيرون لكل هيعة، ويفتنون بكل بدعة، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير.

ليت شعري أفما كان الأجدر بمن منحوا فطرة الإنسان، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيوان، أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا إل بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات؟ بلى، ولكنهم أبوا إلا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث والأقوال الغريبة دون سبر لأغوارها ولا تفكر في مبلغها من

الصدق، وما يتبع أكثرهم في ذلك إلا الظن وما تهوى الأنفس، وليت هؤلاء يتفون بخزي الجمود أمام الحديث فيقفون إزاءه سلبيين صامتين لا يبدون حراكا ولا ينتحلون فهما، بل نراهم على ضلالهم الكشف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعوى الجوفاء، ويدعون لأنفسهم علوم الأرض والسماء ثم لا ينفكون يقذفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضون أبصارهم حتى عن آياتها البينات.

جهل ذلك الرهط من المتفيهقين تاريخ الأمم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التي تعاقبت فيهم، جهلوا ما انبعثت عنه أحكامهم وأقوالهم في مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية، جهلوا جميع ذلك، كما جهلوا اللباب من أمر دينهم وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا الطائفتين، فسووا بينهما حبا أو كرها، وانتظموها في سلك واحد من المعاملة الحرة، البريئة من شوائب التحيز، ولكنا نجدهم إذا عرض لهم شيء ليس بغربي لووا رؤوسهم وثنوا أعطافهم، وقالوا في عنجهية شوهاء ونعرة حمقاء: «لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوروبة، ولا نولي ثقتنا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها».

وأنه لحسب أحدهم إذا ما شئت إقناعه أن تقول له «بذلك يقول المستر فلان الإنجليزي، أو المسيو فلان الفرنسي، أو الهر فلان الألماني» فليكفيك هذا وحده مشقة التدليل وتوفير البراهين، وليسلسن لك ذلك مجردا ما شئت من أعنة كل عصي شموس.

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدوا لزعامة الحركة الفكرية والنهضة العلمية، كانوا طلقاء العقول، أحرار التفكير، لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية إلا ما أمنوا غشه، واستوثقوا من نقاء معدنه، وكما صلاحه بعد إذ عرضوه على محك الاختبار، وناقشوا أصحابه دقيق الحساب، وميزوا ما فيه من النافع والضار، ذلك كي لا يقبلوا قولا ولا يرفضوا رأيا إلا وأفئدتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتة، ليهلك من هلك عن بينة، ولكنها فيما نرى نوبات عصبية، وغضبات جاهلية، ملكت أعنة قلوبهم، ولعبت بموازين أفهامهم، فأطلقت ألسنتهم بالأراجيف، وسولت لهم كل رأي سخيف. زعموا أنه لا يجوز للدين أن يقف في سبيل الرقي العلمي، وأنه إذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره. كذلكم يقولون أيضا فيما يرجفون أنه لا بد من فصل الدولة عن الدين وأن حرية الفكر الإنساني تستلزم انقلابه ماديا طليقا لا يتقيد بشيء من قيود الأديان. هذه هي الدعائم التي يقيم عليها أولئك الحائرون والإباحيون في هذه البلاد وأشباهها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم، ولقد بينا مبلغ ضلال أحلامهم في تلك المقالات، وخيبة ما يبيتوا من الكيد السيئ لأهل القرآن، كما أوضحنا أن هؤلاء المستحقين والطاعنين، لو كان لهم علم بأصول القرآن ووقوف على ما مكن للعقل والوجدان، وأرسى من قواعد الحرية الصادقة في سائر شعب الحياة، لما زلت لهم قدم في مزالق التقليد، ولفقهوا جلال ذلك الكتاب الذي يقول: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء:٣٦]، {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأنبياء:٧].

معلوم أن الحكمة في ظهور الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إنما هي دعوة أممهم الضالة إلى إصلاح ما فسد من أمرها، ومعالجة ما مرض من أخلاقها، وكبح ما جمح من أهوائها وشهواتها.

ولقد جاء أكثر الأنبياء والمرسلين برسالات خاصة، كما جاء بعضهم لمعالجة أمراض معينة في أقوامهم، جلها فيما يحدثنا القصص اجتماعي وخلقي، ولم يكن في موسوعات رسالات أكثرهم البحث في العلوم الكونية والظواهر الطبيعية، بل ولا النظم والقوانين المدنية.

وإذا كانت رسالات أكثر الأنبياء انقطعت بانقطاعهم، ودرست معالمها بفنائهم، حتى لم يبق سبيل إلى ضبط ما جاء منها، ضبط إحصاء واستيعاب، فإن لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام، فإنها مرآة غيرها من سائر الرسالات التي سبقتها.

ظهر المسيح عليه السلام في جزء من المملكة الرومانية ذات القوانين المدنية والدساتير السياسية، بيد أنه ظهر في أمة اليهود، بعد أن انصرفوا إلى عبادة أحبارهم، وتقطعت فيهم أواصر الأرحام، وتفسخت الأخلاق عن النفوس، وتفشت المنكرات، وأعوز الناس الرحمة والحنان، حتى لم يكد يبقى لهم في الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية.

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا، وتزهيدهم في باطل متاعها، وعندما ضرب لهم الأمثال

والقصص، ليقيم الحرب على الشهوات والماديات التي كانت مالكة لأعنة قلوبهم ومضللة لعقولهم ونفوسهم.

ولقد كان من تعاليم أولئك الأنبياء والمرسلين، ومن حذا حذوهم من المصلحين ما جاء عقوبة لأممهم المتفحشة زجرا لهم عن رجس الشهوات التي عكفوا على مرضاتها، وأسلموا مقاليدهم، حتى أنستهم أنفسهم، وهبطت بهم إلى مراتب سائر الحيوان الأعجم، فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الحض على الرهبانية، والترغيب في الخصاء، والحث على إفناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة، وما كانت أمثال هذه التعاليم في سبيل المصلحة العامة العمرانية، ولا مقصودة لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبدة الشهوات، وإلا فهي منقصة للنسل، مذهبة للعمران سبيل إلى الخراب والزوال. ولذلك يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح، وأكثر من تقدمه من الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، كانت في جوهرها مقصورة على قسم الجهاد النفسي، والتربية الخلقية، كما أنها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت في شدتها وفداحتها مثل الذي بلغه هؤلاء من الفساد والفجور.

ومع ذلك لم يكد المسيح وكثير غيره يأتون الناس في الأخلاق بدساتير تبين الخير من الشر، وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون، بل لم يكادوا كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح بالأمر، وكيف اختصوا أنفسهم بتقرير العقائد وموسوعات الوجدان الإنساني، وكيف

وضعوا (طقوس) العبادات، وحرموا على الناس حق تفسير كتب العهدين، كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة، ولو كان من غير المعقولات، إلى أشباه ذلك مما ضجت الأمم النصرانية من هوله، وثارت للتخلص منه ثوراتها الدموية التاريخية، سياسية كانت أو دينية.

لم نر فيما سجل لنا تاريخ الأديان السماوية، دينا تجاوز تلك الحدود التي وصفنا، فتناول شيئًا من الشرائع المدنية أو علما بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وذلك وإن يكن فيما يخيل إلينا خروجا عن الحدود العادية للرسالات السماوية، إلا أنه لمن تدبره لم ينزل به الروح الأمين عبثا، ولم يرسله الحكيم العليم اعتباطا ولا فضولا، ولكن كان فيمن بعث إليهم هذا الرسولان الكريمان من الشئون والأطوار ما اقتضى أن يمدا من قبل القوي العزيز بما لابد منه في مصارعة أفكارهم الضآلة، وهداية عقولهم الهائمة وإصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة.

كان بنو إسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقائد والعلوم والعبادات المصرية، فكانوا يعبدون الأوثان والصور ويعملون من العلوم الكونية ما كان معروفا بين الناس في هذه الديار، فلما خرجوا إلى سيناء، ولم يكفهم تأديبا ولا عقابا ما لاقوه في التيه من صنوف العذاب والشدة، جاءهم موسى، بعد مناجاة الطور، بالألواح يدعوهم فيها إلى توحيد الله، والنهي عن عبادة غيره، ويحرم عليهم أن يشركوا به شيئًا. ولقد كان لا بد أن يأتيهم بشيء من العلوم الكونية، لما كان لهم من الإلمام بها والوقوف على نتف من غثها وسمينها وفاسدها وصحيحها، فإذا جاءهم بسفر التكوين

فإنما ذلك لتبديد ما تزاحم في صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية والكريتية التي أبعدتهم عن العلوم بقيوم الأرض والسماوات، وسولت لهم عبادة الصور والأوثان، وما في الفضاء من الثوابت والسيارات. وإذا جاءهم موسى مع هذا بشيء من الشرائع والأحكام التعاملية، فإنما جاءهم بما كان ضروريًا لهم في تدبير وسياسة أرض كنعان، التي كتب الله لهم. ولو أن موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين، واندمج في نطاق ملكهم ما شمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان، لكان في توراته اليوم من الأحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشيء الكثير.

وهل كان في استطاعة موسى عليه السلام، لولا ما أمده الله به من ذلك العلم والشرع، أن يعيد أقوامه الهائمين في أودية الجهالة إلى حظيرة القدس الربانية، أو يشرق على نفوسهم الضالة بالأنوار الإلهية؟ كذلكم جاءت رسالة موسى عليه السلام للبلاد، أما مُحَمَّد عبد الله ورسوله إلى الناس كافة، فإن لرسالته التي دامت عشرين عاما ونيفا، ولدعوته التي ستبقى ما بقي الإنسان في الأرض، من الشئون والخصائص والمقاصد وما لا يشاكلها فيه دين ولا تشبهها شريعة.

وسيكون بحثنا في هذا المقام خاصا بموقف القرآن إزاء المسائل الكونية والعلوم العقلية، ولا نعني بهذا أنه جاءنا في هذه المقاصد بما تجيء به الكتب الفنية، تبويبا وتفصيلا وتدليلا وتعليلا، فإن هذا كما هو معلوم ما كان يوما ما من المقاصد الأولى للكتب الإلهية، ولا من أغراض الرسالات السماوية، وإنما يعنينا فيما يلي مدى ما بين القرآن الكريم

والعلوم الكونية من الصلات، وهل وقف كتاب الإسلام يوما ما في سبيل رقي العلم وحرية الفكر، كما يتشدق الخراصون! أم أنه على العكس من ذلك كان محرر العقول الأسيرة، ومنير البصائر المظلمة، ومثبت الأفكار القلقة، ومنعش الهمم الخامدة، ومحرك الأفهام الجامدة؟! كذلك يعنينا أن نصف مقامه في هذه الأغراض، وأن نأتي على آياته التي لم يفسرها إلا الزمان، ولم يكشف دفائنها سوى ما أحدثته الحركة العقلية الجريئة التي انهزمت أمامها ظلمات التقليد، وخفي بها على الأبصار ما كان يعد لدى القدماء علوما صحيحة، ونظريات ثابتة، وما كان أكثرها سوى ظنيات اخترعها الخيال والتخمين، أو أساطير خرافية توارثها الأخلاف عن آبائهم الأولين.

جاء القرآن بما جاءت به سائر الرسالات السماوية من التعريف بالخالق، وتقرير العقائد، وأمهات الشرائع، وأساس الأدب والأخلاق، جاء بجميع ذلك، قصدا إلى هداية العالم الإنساني، وإرشاده إلى ما يضمن له السعادة والنعيم في حياته، إلا أن القرآن حينما جاء كان الناس في جميع الأرض، كما هو معلوم للمؤرخين، نهبا مقسما بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين.

كذلك كان شأن الناس في تلك القرون الوسطى يوم هبط وحي الله في مكة بالقرآن، فإذا جاء القرآن لما سردنا من المقاصد التي نزلت بها الرسالات السماوية الأخرى، فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رق التقليد وإخراج الوجدان الإنساني من نطاق الحجر الذي ضربه من

حوله رجال الدين، جاء لإنهاض العقل الآدمي واستحثاثه في سبيل التفكير والنظر، جاء يخفر النفس البشرية ويسوقها، لتقرأ صحف الطبيعة، وتتدبر آيات صنعتها البديعة. بغض القرآن إلى الإنسان، كما أسلفنا، رذيلة التقليد، ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الأولون، أو شاءه الأحبار والربانيون، حتى لقد سمى القرآن هؤلاء أربابا لمقلديهم في آية: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ} [التوبة: ٣١].

ولكم عير القرآن الغافلين من معطلي العيون عن الأبصار والآذان عن حسن الاستماع والأفئدة عن الفهم والتدبر، بأنهم كالأنعام بل هم أضل.

عهد البحث والنظر

جاء القرآن والناس في الأرض بين أمي لا يعلم الكتاب إلا ظنونا وأماني، ومقلد ملكت فؤاده تعاليم الأحبار والرهبانيين وأساطير الآباء الأولين وإباحي لا قيدي استرقته الشهوات والأهواء فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح، ودهري يقول: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر. ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر في أن تستنير البصائر، وتتحرر العقول، وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لآدم وآدم من تراب وأن يعلموا أنه لا تغني نفس عن نفس شيئًا وأن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون.

جاء القرآن والناس في كل أرض كما وصفت لكم، فكان لا بد له من الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس، وبين فرائسهم المسكينة الصرعى، تلك التي تزعجهم يقظتها ويهولهم انتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها.

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين في الأرض، فإن البعثة المحمدية لم تختم إلا والناس كافة طلقاء عقلا وضميرا، أحرار قولا وفعلا.

بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن بدئ عهد البحث والنظر وولت دولة الجمود، فوطئت بذلك الأكتاف للفلسفة الإغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت، فهي بأهل القرآن عاشت، وفي أرض القرآن نمت، وفي ظل القرآن عزت وسادت.

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس، وديمقريط، وإنكساجوراس، ما لقيته هي نفسها في بلاد الإغريق التي هي مهد الفلسفة ومنبتها؟.. أم هي لقيت منهما فلسفة سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وأرسترخوس، وكليانتوس، وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الأساطين، ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة؟.. وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو، وأمعنوا فيهم تنكيلا وتحريقا لغير علة سوى أنهم، بعد إذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة، استنكروا عتيق الخرافات

وأعلنوا الدعوة إلى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات.

ظهر القرآن أول ما ظهر في أمة أمية، لم تألف المباحث العقلية، ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية، فلما جاءهم بما ذكر لهم من إشاراتها أو صريح عباراتها – ولم تتسع لها مداركهم بعد – ذهبوا في أمرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يقفوا ما ليس لهم به علم، فتقبلوها مؤمنين، وتركوا أمر تأويلها وفهمها إلى أهل العلم آخذين بقوله تعالى: {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس:٣٦]. وقوله {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٨٥]، وقوله: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف:٧٦]، إلى أشباه ذلك من الآيات التي علمهم بها الله أن العقل ليس بعربي ولا عجمي، وأن العلم ليس بشرقي ولا غربي.

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا، حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين، بعد إذ أعدها الإسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية، فتفجرت لأهل القرآن عيونها النضاحة وتقدمت لأيديهم قطوفها شهية دانية، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين، سبق في كل مضمار ونقابة خالصة لهم في سائر شعب الحياة، وقيادة عامة في ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال.

أجل، ولكن بقايا الصدر الأول، المسمى بالسلف، قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الإغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين، حتى رأوا الكثير فيها خطرا على دين الإسلام، وحربا على تعاليم القرآن، كما خفت إذ ذاك أحلام طارت بها الأهواء والزعازع الفكرية إلى مسالك متشعبة من الشك والابتداع والإلحاد، حتى إذا ركدت تلك الأعاصير، وثابت العقول إلى رشدها، وامتحن الناس موقف القرآن إزاءها سكنت النفوس القلقة، واطمأنت الأفئدة المضطربة، إذا وجدوا في آياته المحكمة ما كان جنة لهذا الدين، ومنارا للمحصلين، وحجة قائمة على الجامدين، ورجوما لشياطين المرجفين من الجاحدين. ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم وهم القوامون على دين الإسلام الحامون لحماه، يهتمون بأمر تلك العلوم، ويترجمون إلى العربية ما كان موضوعا منها باللغات الأخرى، كما أخذوا يتدارسونها، ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها، ولو كانوا من غير المؤمنين.

ففي ظل القرآن وصادق دعوته الحارة إلى الدرس والبحث والتفكير العميق، تعانق العلم ودين الإسلام عدة قرون، لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام. ومازال ذلك الأمر قائما في البلاد الإسلامية حتى فسدت الملكة العربية، وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وإدراك تعاليمه ومقاصده بمستقل مداركهم وحر عقولهم، هناك حيل بين العقول والعلوم، وبخاصة في بغداد، فنصب طائفة من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير، حاجرين على المدارك أن تتحرك في ميادين المعقولات، وعلى الأبصار أن تتقلب في صحائف الأرض والسموات.

ومازال شيوخ الدين، باسم الدين هنالك يستأثرون بكل أمر، والخلفاء والأمراء والترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التي تفشت في أممهم، ويستغلون العامة من شعبهم، استغلالهم الأنعام، حتى عاد الإسلام غريبا كما بدأ، وانقلب الناس إلى جاهليتهم الأولى، ولقد حذا المسلمون في هذه النوبة حذو المسيحيين في البلاد الغربية، فأقاموا في بغداد الأوروبيون في ممالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم في الرأي والاجتهاد، ولو كان مرجعهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم. فلقد أوصدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول، وقطعوا للناس في العقائد والأحكام بأشياء وضعتها أيديهم، ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون.

احتكرت هذه الطائفة – ولاسيما في بغداد – علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة، كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية، وتبعوا في استبدادهم بالعامة بل بكثير من الخاصة سنن رجال الكنيسة، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، فحرموا وحللوا وفسقوا وكفروا، وحذروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون، فأقاموا بذلك لأنفسهم سلطانا على النفوس والسرائر والعقول، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والأمراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية. فلأغراض سياسية صبغت بألوان دينية كان أكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التي قامت باسم الدين، وما هي من الدين في شيء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين، قضت بأن يعطل في بغداد القرآن، ويطفأ بها نوره الساطع الذي

جعلها في عدة قرون كعبة المحصلين، ومثابة المستنيرين، ومهاد توأمي العلم والدين.

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة، كتب الفوز والغلب للجهل وتم النصر للسيف على العقل، فهام الناس في أودية الضلال، ورجعت العقول إلى جاهليتها الأولى، انقطاعا عن التحصيل، وتقيدا بالتقليد، وأخذا بالخرافات والأضاليل.

بهذه النظرة العامة التاريخية لموقف القرآن إزاء العلوم العقلية والكونية، يتبين أن حياة تلك العلوم وذيوعها في سائر البلاد التي شملها ظل القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معاني هذا الكتاب، ومدى إدراكهم لأسراره وأخذهم بتعاليمه، ولعل القارئ لاحظ كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الإسلامية، ومتى انطمست معالمها في الحواضر التي كانت زاهية زاهرة، تضرب إليها آباط الإبل من كل صوب، ويقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الأرض.

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الأمم وعقلياتها، يعدي بعضها بعضا، ولاسيما ما كان منها خبيثا، فالشعوب الإسلامية في الشرق، عندما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين ما فعل في الغرب رجال الكنيسة بالمسيحيين، وكم من مرة أتحدث أو تقاربت فيها الأوقات التي كانت تقام فيها محاكم التفتيش في أواسط أوروبا والاضطهادات المذهبية في بغداد وما حولها.

ومالي لا أتحدث بما فعل الكاثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢ م بالبروتستانت من المذابح التي أحصيت ضحاياها، فبلغت سبعين ألفا عدًا، مقارنا ذلك بالجناية الكبرى، التي جناها السلطان سليم عام ١٥١٣م في بلاد العجم، يوم أحصى الشيعة في تلك البقاع بطريقة سرية لم يشعر بها أحد، حتى إذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم، أمر السلطان فأبيدوا فجأة عن آخرهم وكانوا نحو أربعين ألفا، ولم يكن لذلك من سبب، سوى القصد إلى إثارة نفس عميد الشيعة الشاه إسماعيل ملك العجم، واستفزازه للمحاربة، طمعا في ملكه، وقصدا إلى إبادة دولته، فالسبب في هذا المثل كما ترون سياسي بحت، ظهر للناس في شكل ديني. ولهذا المبحث من الأحداث والشواهد، ما يخرجنا سرده عما قطعناه على أنفسنا هنا من الإيجاز والاجتزاء بالعجالات والأمثال.

كذلك كان شأن القرآن إزاء العلوم، وقد كان من موسوعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة، فهو الذي قام بالدعوة إليها، والترغيب في البحث عن دقائقها وأسرارها، وهو الذي ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال: الكندي، ومُحَمَّد بن موسى الخوارزمي، ويحيى بن أبي منصور، والعباس بن سعيد الجوهري، وأحمد بن كثير الفرغاني، وجعفر بن مُحَمَّد البلخي، ونصير الدين الطوسي، وثابت بن قرة، وعمر بن الخيام، وابن سينا، وأبي نصر الفارابي، وابن رشيد، والحسن بن الهيثم، وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والأثقال والموسيقى وغيرها.

لم يبق علينا إذن إلا البحث في موقف القرآن الكريم، إزاء ما يسمى الآن بالعلوم (sciences)، وهل في طبيعة دراستها بالأساليب الحديثة، ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدا لا يتعانقان معه، لا يرجوان سلاما بعده؟ أجل! بيد أنه لا بد لنا قبل الدخول في تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المألوف للعرف الحاضر في الغرب وكذا في الشرق الذي يسير على أثر الغرب في كل شيء، فإن لكل زمان اصطلاحه وعرفه، ولكل عرف حدوده وحكمه، ولنعتمد فيما نقدم لكم من ذلك على أقوال أساطين رجال الفلسفة الحديثة من أهل أوروبا، فإنهم محدثو هذه الفلسفة ومبتدعو اصطلاحاتها، وواضعو تعاريفها، فنقول:

(١) يقول هكسلي: «العلم» فيما أعتقد، ليس سوى الذوق الإنساني بعد تربيته وتنظيمه، ويطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة، مثل المناظير المكبرة (Microscope) والمناظير المقربة (telescope)، وهل أقسمت اكتشافات كبلر ونيوتون إلا على تلك القواعد الثابتة، قواعد الشهود بهذه المناظير؟».

(٢) ويقول الأستاذ بلفور في خطبة له: "يتوقف العلم في تحصيله والتثبت منه على المقاييس فكل ما لا يقبل القياس من الأشياء، فهو خارج

أو يكاد يكون خارجا عن حدوده الطبيعية، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور وليست مما يقاس، فهي إذن لا تكون من موضوعات «العلم».

(٣) ويقول الأستاذ وندل: «العلم– سواء استعان بالآلات أم لم يستعن – عماده ما يلاحظه ويحسه من الكائنات، وما تهديه إليه في المعامل الكيميائية والمعامل الطبيعية التجارب والآلات، التي تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكانها العميقة، مع بلوغها من الدقة والضآلة، ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين.

وإذا أردنا أن نبحث في باطن النظام الآلي للطبيعة أو في خارجه، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام، وكيف كان وما مصيره، أو حاولنا أن ندرك كنه هذا الكون، ومبلغ شعورنا به، ولم وجد لم خلقنا نحن هنا، إذا أردنا ذلك، فإن العلم الحديث ليس لديه جواب عن شيء منه، إذ لا دخل لشيء من ذلك في الحدود المصطلح عليها للعلم، وإذا كان لا علاقة للعلم الحديث بشيء من تلك المباحث، ولا جواب لديه عن أمثال ما قدمنا من الأمثلة، فليس بالطبع لأحد ممن يتكلمون باسم العلم أن يدعى أن «العلم» أقام البرهان على عدم وجود الله، أو أنه ليس هناك أرواح، أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار إلخ....».

مما اقتبسناه هنا من أقوال أساطين التجديد الغربيين في تعريف كلمة «العلم» وتحديد مداها وموسوعاتها يتبين أن من الجهل الفاضح واللغط

الطائش أن يتعرض باسم هذه الكلمة – ورقعتها من الضيق على ما رأيتم – إلى المباحث العقلية البحت، وبخاصة ما وراء الطبيعة منها، فإن «العلم» بالمعنى الذي وصفه وعرفه واضعوه كما أسلفنا لا يعرض لشيء من هذه المباحث بنفي أو إثبات، ولا يتناولها بامتحان ولا مناقشة، وكيف هو لا يصل إلى المحسوسات ولا يعرف موضوعا غير الماديات، ولا منطقا سوى المعامل والآلات.

ولقد وقفت الكنيسة في بدء بناء «العلم» على تلك القواعد الجديدة وقفة المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الإلهيات في جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذي خلاصته:

(١) أن النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وأنها لا تتحرك من مكانها هذيان، وأنها كذلك هرطقة لأنها بلا ريب مناقضة للكتاب المقدس.

(٢) أن النظرية القائلة بأن الأرض ليست مركز الدنيا، وأنها غير قارة، ولكنها متحركة ومتنقلة، هذه النظرية مساوية فلسفيا لسابقتها في هذيانها أو خطئها، ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة.

ولم تهبط سورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه إلا في نحو الثلث الأول من القرن السابع عشر بعد إذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم في فهم عبارة «العلم» ويفقهون ألا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات

أصلا، فهنا نرى القسيسين الكاثوليكيين: بليالدو، وغسيندي، يتوليان علنا في الأعوام (١٦٣٩– ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيك، فلا يصابان بأذى، ولا يتهمان بهرطقة.

بعد الذي قدمنا في هذا المقام من البيان، نود أن نقرر بكل توكيد أن موقف القرآن الكريم تجاه «العلم» في العصر الحديث، هو عين موقفه إزاء «العلم» في القرون الوسطى إلى عهد التجديد الغربي، فهو كما كان قبلا لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير، والأبصار إلى الاعتبار، والآذان إلى الاستماع، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس إلى التحسس من أسرار الكائنات، ويحفزه إلى الكشف عن غوامضها، والتنقيب عن دقائقها، فهو بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون أنهم لو يؤتوا من العلم إلا قليلا، وأن الله يخلق ما لا يعلمون، وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة، كذلك يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد في عقائدهم، واتباع الظن في أحكامهم، والميل مع الأهواء في تصرفاتهم.

على أنهم مع هذا كله يجدون في كثير من آي القرآن ما يرشدهم إلى مواطن التفكير والبحث، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول إليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه، وإذا كان استقصاء ما جاء من ناحية النظريات الحديثة في القرآن الكريم، وبيان القول فيه كما ينبغي مما لا يتسع له هذا المقام، فإننا نكتفي هنا بالإتيان على طوائف منها إجمالا لا تفصيل له، وإيجازا نجتزئ بالإشارة فيه، ففي هذه الحدود التي رسمنا لأنفسنا نقتبس من الآيات

الكريمة ما له علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية، وقيل إنجاز ما وعدنا هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله فنقول:

(١) ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث في الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف في الكتب الخاصة الموضوعة فيها.

(٢) لما جاء القرآن الكريم كان في جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطئ بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بني إسرائيل عندما أخرجهم موسى عليه السلام من مصر، فكان من الحكمة الإلهية أن يتنزل على مُحَمَّد في سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى في سفر التكوين، والحكمة البالغة في ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق، وتقرير الحق من العقائد، وقبول ما يلي ذلك من الشرائع والأخلاق ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية وأصلها وألوهيتها وتزاوجها وما كان من أنسالها في تكوين هذه الكائنات ونظامها ما قررته العقلية القديمة في بلاد مصر والإغريق، وما بثته في جزيرة العرب وما حولها أساطير الآشوريين والبابليين والكلدانيين، إذن كان لزاما أن يسترعي القرآن الناس إلى وجه الخطأ في عقائدهم، وأن يشككهم في الباطل الذي اتبعوه، لأنهم وجدوا عليه آباءهم، وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذي أشقاهم وألحقهم بالأنعام من الحيوان.

(٣) كانت إذن مهمة القرآن الحكيم، التي أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف بالخالق جل شأنه، أن يبين للعقول بضرب الأمثال لم تفكر وفيم تفكر؟ فهو في جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كي يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال.

(٤) لم يقف القرآن الكريم عن هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال في بيان بعض غوامض الحقائق الكونية، بل جاء في ذلك بحقائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوب الصواب فيها، ثم نصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولهما، وألا يقطعا في شيء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور، ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون أو يكلون أمر مالا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

(٥) أن المسيحيين حينما ثاروا في وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم التجديدية في أوروبا لم يكونوا ليشبهوا في شيء من مواقفهم تلك أحدا من الشعوب الإسلامية، فإنما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منها، ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها، ولو اعتمد على رأيه على الحس

والمعاينة، حتى لقد كان منهم ميلانشت ونوكميرمونيني اللذان رفضا أن ينظرا إلى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة).

وقد روي أن غاليليو أن من تلاميذ المذهب الأرسطي من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل، وأنهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك. إذا نقض منها حجر أنهار سائر بنيانها على أثره، فكان ذلك سبب مغالاتهم في التمسك بها والحرص عليها مجتمعة. والآن، وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية، ننجز ما سبق لنا الوعد به، فنقول:

(أ) تكون جميع أصول الكائنات من زوجين اثنين، وبلسان العلم الحديث من: إلكترون، وبروتون.

(ب) وفي القرآن: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات:٤٩]، فما من شيء في الوجود إلا منه الذكر والأنثى سواء في ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرها مما لا نعلم، وجاء في بيان إجمال ذلك قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يس:٣٦]، وفي عبارة ومما لا يعلمون من المعاني ما يسكن إليه عقل الإنسان في كل زمان، وتطابقه كما رأينا أحدث نظرية في أصول الأكوان.

(ج) تتولد الحياة من الماء:

وفي القرآن: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء:٣٠]، فهذه الآية تطابق العلم الحديث في هذا الموضوع، ولقد وقفت الآية تطابق العلم الحديث في هذا الموضوع، ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين إزاء هذه الآية حائرة قلقة، فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه، ولذلك وقع لهم في تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحا هنا.

(د) تعدد الأرضين:

لم يذكر القدماء شيئًا في أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضي كثيرة غير أرضنا، ومازال الرأي السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها، حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة، وكذلك من جاءوا بعده فأثبتوا بمشاهدتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا، وقد يكون لها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق والعمران، ولم يعتمدوا في هذا التجويز إلا على الحدس والظن، فإن مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد.

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين في آية {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق:١٢]، ففي تفسير أبي السعود (من مفسري القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض، وفي تفسير النيسابوري أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها

إلى الأخرى مسير خمسمائة عام [٣] وفي كل أرض منها خلق إلى أن قال: وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها، إلخ، ومن أصرح الآيات في أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى:٢٩] إذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتي لنا من التأويل، ومن الآيات البينة في هذا الموضوع قوله تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون:٧١].

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان في الأجرام السماوية، ولكن نفى الزمخشري والبيضاوي وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفا من الحيوان يمشون فيها مشى الإنسان على الأرض، فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم.

(هـ) السيارات هي التي تدور في مدارات وهمية، وليست كما يقول قدماء الفلاسفة ثابتة في أفلاك دائرة بها، وهذه الأفلاك لا تقبل الخرق والالتئام، إلى آخر ما جاء للقدماء في وصفها والتعريف بها، أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة في آية {كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}

---

(٣) مسألة تقدير المسافات التي بين السيارات مثلا بمسير خمسمائة عام يفسرها الشهرستاني بالدابة تسير فرسخا إسلاميا في كل ساعة على ما هو معروف ومصطلح عليه في سائر الكتب الإسلامية مما يبلغ مجموعة نحو ١٦ مليون ميل تقريبا وهو قريب جدا من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الأستاذ في كتابة المسمى «الهيئة والإسلام» صفحة ٩٠ جزء أول.

[يس:٤٠]، و آية{وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} [المؤمنون:١٧].

(و) الشمس جسم تبث النور والنار من ذاتها وترسلهما إلى سياراتهما المرتبطة بها وإن اقتضى ذلك إضاعة أضعاف ما يحتاجه كل سيار من أشعتها، والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان، وقابلة للفساد والفناء، ومن الثابت بالحساب أن الشمس تفقد من مادتها في الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طنا. ولا ينبغي أن يزعج هذا عشاق الحياة الدنيا، فإن الشمس على هذا الحساب تحتاج في فقدها جزءا من مائة جزء من حجمها إلى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة، على أنها بعد أن تصل إلى هذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة في أكثر أجزاء هذه الأرض صالحة طيبة.

وفي القرآن في ذلك: {وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} [نوح:١٦]، {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} [النبأ:١٣] قال مقاتل في تفسير الوهج: مجمع النور والحر، وفي القاموس: وهجت النار اتقدت.

ومن الآيات: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير:١]، أي ذهب حرها ونورها وآية {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢)} [الانفطار: ١-٢]، {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠)} [المرسلات: ٨-١٠]، إلى أمثال هذه من آيات القرآن الكريم، وهنا يحمل أن أذكر بالخير أحد مجتهدي الشيعة هبة

الله المشهور بالشهرستاني، وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابا فيما بين الهيئة الحديثة والإسلام من الاتصال، فأتى على بعض مباحث قيمة مفيدة بحسن أن اقتبس منها ما جاء له في بيان معنى السماء في القرآن إذ يقول:

(١) إذا وردت السماء والأرض معا ومفردتين في آية، كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء الأجرام.

(٢) إذا ورد لفظ الأرض مفردا ومعه السماء مجموعة كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السموات الكرات والأجرام مطلقا.

(٣) وإذا ورد لفظ الأرضين مع السماوات مجموعتين كان الظاهر من الأراضي السماوات مجموعتين كان الظاهر من الأراضي السماوات والكرات البخارية المحيطة بها.

هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الأرض. قال القزويني: كل ما فوق الأرض فهو سماء، وقال الطبري في مجمع البيان، كل ما علاك وأظلك فهو سماء وجملة القول فيما قصده القرآن من كلمة السماء أن السماء:

(١) نفس الجو كآية: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١)} [سورة الفرقان: ٦١].

(٢) الأجرام السماوية والسيارات كما في حديث «إن في السماء آدم كآدمكم ونوحا كنوحكم» وكما في آية {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى: ٢٩].

(٣) جسم عظيم مكور محيط بالأرض، ولكن اختلف الناس في فهم كنهه والمفهوم من بعض الأحاديث أنها كرة بخارية غازية، وهذه مع كرة الهواء التي في جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها، وفيها يقول الأستاذ فاندايك (جزء ثالث– النقش في الحجر):

«إنا عائشون في قعر أوقيانوس سيال معدل عمقه على الأقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الأرضية» وفي هذا المعنى جاءت آية {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]. ففي مروج الذهب وابن هيثم في شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذي تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره، وفي كليات أبي البقاء: كل دخان يسطع من ماء حار فهو بخار وكذلك الندى، وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة: (١) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (٢) يوم تشقق السماء بالغمام و(٣) وأنزلنا من السماء ماء و(٤) أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي (وذلك في رأي بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر:

إذا نـــزل الســـماء بأرض قـــوم   رعينـــاه وإن كـــانوا غضـــابا

ولقد رويت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها، وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر المكفوف أي الذي لا يهبط ولا يسقط لأنه في حالة بخارية.

فائدة الجبال في الأرض وحكمتها أنها مقام الإنسان وغيره من الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها، إذ هي الجزء الجامد المرتفع الراسي الثابت المتماسك الأجزاء والعناصر الصلبة، ولولا هذه الخصائص والصفات لمادت الأرض ببحارها ولاضطربت بأمواجها كما يشاهد في القسم المائي منها وهنالك لا يكون للإنسان بها مستقر ولا للعمران فيها سبب ولا مكان.

ومن الآيات الواردة في ذلك المعنى: (١) {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} [الأنبياء:٣١]، و(٢) {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)} [سورة النبأ: ٧]، و(٣) {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ } [النحل:١٥].

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاع عن سطح البحار تكون للإنسان مقاما حصينا لا يهدده طغيان الأبحر ولا يجترفه مضطرب الأمواج، ثم أنها لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها لها من الفوائد العظمى والشرائع الجوهرية الضرورية للحياة والعمران والحضارة ما لا يخفى على المحصلين، ومن الخطأ أن تتخيل الجبال كالأوتاد تغرز في الأرض أو الحائط لتربط بها الدواب الخشبية فرارها أو الخيمة لبنائها

وإقامتها على أعوادها فإن هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم، وما لنا أن نأخذ بهذا التأويل السقيم، ولنا في معاني الوتد لغة ما لا يلجئنا إليه؟

لقد سماه العرب الناشزة في مقدم الأذن وتدا. فيقال «ما أملح وتدي أذنه» كما استعملوا أوتادا البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتادا الفم لأسنان المثبتة في فكيه، إذن لماذا يقذف بنا الشطط في التأويل حتى نحمل كتاب الله العربي من المعاني ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية؟ أفلا يعلم أولئك أن الجبال هي المثبتة في الأرض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة في الأرض والحائط، وأن الأمر بهذا ينعكس عليهم إذ تكون الأرض هي الوتد الذي تثبت به الجبال لا العكس.

ثم ماذا عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال في الأرض من ناحية حفظ توازنها ووقايتها ما يحل بها في الميدان والاضطراب كما يقول أولئك الواهمون، أننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السماوات والأرض بما قدر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب، فهو الرافع لها، كما في القرآن، بغير عمد مرئية للأبصار، ولكن جعلها سابحة في الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان، فهي تسبح بقدر في مدارها سبحا لا يعتوره نشوز ولا نكوب مادامت تلك النواميس قائمة معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسموات {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: ٤١].

على أن نظرة واحدة إلى نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض تدلك على أن الجبال في الأرض تدلك على أن الجبال في الأرض ما هي إلا كالهامات الناشرة في سطح جسم الإنسان لا تقيم بضآلتها وزنا لاعتداله ولا توازنه، فإن رفعة تلك الجبال الشاهقة في كرة الأرض على قلة عددها تتراوح بين خمسة آلاف من الأمتار وتسعة آلاف متر تقريبا وبعبارة أخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية يقسم إليها قطر الأرض تقريبا (٤)

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال في الأرض، أما الحكمة في وجودها فقد سبق الكلام فيها، وإجماله أن الغرض هو إعدادها لعالم الحياة والعمران في كرة الأرض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الأحياء وإقامة معالم الزينة والجمال في أقطارها وربوعها.

يشير إلى ذلك قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [ق:٧].

وبعد فقد آن لنا نكتفي بما قدمنا لكم من العجالات والأمثال فإن في استقصاء هذه المباحث ما يحتاج إلى ضخام المطولات، فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا إلى إكمال هذه الموضوعات وإيفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين

(٤) قطر الأرض يساوي ٣٠٠٠ فرسخا

الآيات الواردة حول الموضوعات السابقة

(١) {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)}سورة النمل ٦٠-٦١]

(٢) {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} [فاطر: ٤٠].

(٣) {أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)} [سورة النمل: ٦٠]

(٤) {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت: ٥٣]

(٥) {إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦].

(٦) {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [الأنفال:٢٢]

(٧) {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} [يونس:٤٢]

(٨) {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)} [سورة الرعد: ٣-٤].

(٩) {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام:١٤٨]

(١٠) {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف:٢٨]

(١١) {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [سورة النساء: ١٦٥]

(١٢) {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)} [سورة الأعراف: ١٧٢–١٧٣].

(١٣) {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [سورة البقرة: ٧٨–٧٩]

(١٤) {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: ١٢٠].

(١٥) {وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٥١]

(١٦) {قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٤٧]

(١٧) {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩]

(١٨) {هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد:١٦]

(١٩) {قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} [النحل:٢٧]

(٢٠) {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٤٣]

(٢١) {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء:٣٦]

(٢٢) {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} [مريم:٤٣]

(٢٣) {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:١١٤]

(٢٤) {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص:٥٥]

(٢٥) {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [العنكبوت:٨]

(٢٦) {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:٤٣]

(٢٧) {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت:٤٩]

(٢٨) {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [لقمان:٢٠]

(٢٩) {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} [غافر:٤٢]

(٣٠) {قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف:٢٢]

(٣١) {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الدخان:٣٢]

(٣٢) {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية:١٨]

(٣٣) {وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [الأحقاف:٢٣]

(٣٤) {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق:٢]

(٣٥) {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق:٣٧]

(٣٦) {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩)} [سورة النجم: ٢٩]

(٣٧) {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)} [الغاشية ٢١-٢٢]

(٣٨) {فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [التغابن:١٢]

(٣٩) {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)} [سورة القلم: ٣٥-٣٦]

وهناك كثير من آيات القرآن الكريم مختومة بمثل العبارات "قليلا ما تذكرون»، {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:١١١]، {ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف:٤]، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الروم:٢٢]، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر:٤٢] إلى أشباه ذلك مما تجدونه في ثنايا الكتاب العزيز.. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بالآيات المنجيات

الفهرس